والناس يستمسكون عادة بالمذهب القديم كما يستمسكون بالآلهة وأن تقضى زمانهم ،

غاب عن بعض الفلاسفة تاريخ الانسان وتقلب ماهية قوته العاقلة وتغير قوانين تناسله الطبيعية فقاموا ينشرون فى الناس فكرة المساواة بين الافراد وبين الشعوب

خلبت هذه الفكرة أذهان الجماعات فارتكزت فى عقولهم ارتكازاً قوياً وآتت أكلها بعد زمن يسير فزعزعت أسس الجمعيات الأولى وولدت أعظم الثورات ورمت أمم الغرب فى اضطرابات شديدة لا يعلم مصيرها الا الله

على أن الفروق بين الفرد والفرد وبين الامم بعضها وبعض من الامور المسلمة فلا ينكرها أحد حتى أولئك الفلاسفة ولكنهم تعجلوا بالاعتقاد أنها ناشئة عن اختلاف التربية وأن الناس يولدون متساوين فى الذكاء وطيب النفس وأن النظامات هى التى أفسدت عليهم ذلك ومن يسهل عليه هذا الاعتقاد لا يصعب عليه ايجاد الدواء . لذلك قالوا انه يتم بتغيير النظامات وتوحيد التعليم للجميع . وهكذا أصبحت النظامات ومسائل التعليم ذخر أهل مذاهب الحرية (الديمقراطية) وعدتهم فى زماننا هذا وهى التي يرون فيها الوسيلة لابطال الفروق التى تجرح مبادئ العصر الحاضر بعد أن صارت تلك المبادىء من المعبودات

إلا أن العلم تقدم وأثبت بالبرهان بطلان مذاهب المساواة وأن الهوة التي أوجدها الزمان في عقول الأفراد والشعوب لاتزول إلا بتراكم المؤثرات جيلا بعد جيل . ودل علم النفس بقدر ما وصل اليه الآن كما أثبتت التجارب أن النظامات والتربية التي تليق بأفراد أو بأمة قد تضر بأفراد آخرين أو بأمة أخرى . لكن ليس من مقدور الفلاسفة إبطال مذهب انساب في الاذهان يوم يبين لهم أنه غير صواب فالفكر اذا علق بالنفوس يشبه النهر اذا طغى يفيض ماؤه من فوق الجسور ويغرق الحقول ويخرب المزارع وما من شيء يعوق اندفاعه

ما من عالم نفسي ولا من سائح ذى نظر ولا من سياسى مجرب إلا وهو يعتقد الآن خطأ ذلك المذهب الخيالى أعنى مذهب المساواة الذي قلب الدنيا رأساً على عقب وأقام فى القارة الاوروبية ثورة أرتج الكون منها وأذكى في القارة الاميركية نار حرب الاجناس وصير جميع المستعمرات الفرنساوية في حالة محزنة من الانحطاط ومع ذلك فقلما يوجد بين أولئك المفكرين من يقوم في وجهه بمعارضة ما

ولم يدخل مذهب المساواة حتى الآن فى دور السقوط بل هو لا يزال يدنو ويعظم فهو الذى يدعى الاشتراكيون انه الوسيلة لاسعاد أمم العرب مع أن الظاهر أنه يمشي بتلك الأمم

الى الاستعباد . وباسمه قامت المرأة تطلب المساواة بالرجل في الحقوق وفى التربية وقد نسيت ما بين النوعين من الفروق العظيمة في القدرة العاقلة ، وهى اذا فازت بمطلبها جعلت الاوروبى رجلا من الرحل لا يعرف له بيتاً يأويه ولا عائلة يسكن اليها

أما الامم فتكاد لا تهتم بما نشأ عن هذه المبادىء من الانقلابات السياسية والاجتماعية ولا بالى ستحدثه فى المستقبل مما هو أشد تأثيراً وأعظم ضرراً . وليس رجال السياسة بأكثر اهتماماً من أممهم بهذه الحوادث لقصر حياتهم فى مراكزهم فى هذا الزمان ولان السيطرة أصبحت للرأى العام فهو القاهر فوق الحكومات ولا مندوحة لاحد عن اتباعه

ليس لمذهب من المذاهب من الاهمية الاّ بمقدار تأثيره فى نفوس المتخلفين به . أما ما فيه من صواب أو خطأ فمسألة نظرية لا تهم إلا الحكماء . ومتى دخل مبدأ في أذهان العامة وجب الخضوع لنتائجه كلها صواباً كان المبدأ أو خطأً

ومن أجل ذلك نرى أهل مذهب المساواة يسيرون في تقريره من طريق الانتخابات والتعليم ويطمعون بذلك فى تقويم مظالم النواميس الطبيعية وفى صبغ عقول زنوج (المرتينيك) وسكان (جوادلوب) و (السنغال) وعرب الجزائر وأهل آسيا بصبغة واحدة وهم فيما ذهبوا اليه واهمون . فمن المحقق أن خبالهم

لن يتحقق . غير أن التجارب وحدها هى التى تبرهن على ما ينجم عن الخيالات من الشرور . أما العقل فليس في استطاعته تحويل الناس عن معتقداتهم .

والغرض من هذا الكتاب بيان الاخلاق النفسية التى تتكون منها روح الشعوب والبرهنة على أن تاريخ الامة ومدنيتها منتزعان من هذه الاخلاق وعليه فانا سنبحث فى كيفية تكون الامم التاريخية وتربية مزاجها العقلى . ونريد بالامم التاريخية الامم العارضة بعد التاريخ وهى التى كونتها الفتوحات والهجرة والتقلبات السياسية ثم نبين أن تاريخها مأخوذ من تكونها على هذا النحو ونشير الى ماهو عليه أخلاق الامم من الثبات أو التقلب . وننظر هل الامم وكذا الافراد سائرون إلى التساوى أو هم سائرون إلى الضد بحيث يكثر التفاوت بينهم وتعظم الفروق . ونرى بعد ذلك هل عناصر كل مدنية وهى الفنون والنظامات والمعتقدات مظهر من مظاهر روح أمتها ؛ ولذلك لا يتأتى نقلها من أمة الى أخرى . وننتهي ببيان الحوادث القهرية التي ينطفئ بسببها نبراس المدنية ويعفو أثرها . ولا نتعرض في أبحاثنا هذه إلى التفصيلات إلا بقدر ما تمس الحاجة اليه لبيان المبادئ وتقريرها إذ كل ذلك مما أطلنا شرحه فى عدة مؤلفات

نشر لها عن المدنية الشرقية وما هذا السفر الصغير إلا خلاصة ما قد فصلناه

أخص ما استجليته من سياحاتى البعيدة فى البلاد المختلفة هو أن لكل أمة مزاجاً عقلياً ثابتاً كثبات خواصها التشريحية وهذا المزاج هو الذى تصدر عنه مشاعرها وأفكارها ونظاماتها ومعتقداتها وفنونها . وقد ظن (توكفيل) وغيره من كبار المفكرين إن نظامات الامم أصل فى تطورها . ولكنى على الضد من ذلك أرجو أن أقيم البرهان من أحوال الامم التى بحث فيها (توكفيل) على أن تأثير النظامات فى المدنية ضعيف جداً وانها فى الغالب مسببات وقلما تكون أسباباً

ومما لا شبهة فيه أن تاريخ الامم يتكون من عناصر شتى ومن تلك العناصر كثير من الحوادث الفردية والاتفاقات والعوارض التى كانت وكان يجوز أن لا تكون . إلا أن هناك غير هذه الحوادث العرضية نواميس كلية ثابتة تسير المدنية فى كل أمة بمقتضاها وأهم هذه النواميس وأعمها وأثبتها هو المزاج العقلى . وما حياة الامة أعنى نظاماتها ومعتقداتها وفنونها الا اللحمة الظاهرة من نسيج روحها . ولا يتسنى لامة أن تغير نظاماتها أو معتقداتها أو فنونها إلا إذا غيرت روحها نعم ليس هذا هو الذى نراه مسطوراً فى التاريخ ولكنا سنبرهن بالسهولة على أن ما فيه مما يخالف

نظرنا مبني على ظواهر لا حقيقة لها

اجتهد المصلحون الذين يتعاقبون منذ قرن في تغيير كل شيء فارادوا تغيير المعبودات والارض وسكانها وهم إلى الآن مانالوا إلا يسيراً من طبائع الامم التي ثبتها الزمان فيها

ذلك لان إدراك الفروق الثابتة بين المخلوقات وعلى الاخص أفراد النوع البشري ليس مما يتفق مع مذهب الاشتراكيين في هذا الزمان والعلم ليس بكاف وحده في إقناع رسل مذهب جديد بأنهم فيه واهمون وأن استمساكهم بآرائهم ناشئ من كونهم يتتبعون خطوات من سبقهم في البحث عن السعادة الدنيوية التي ما فتيء الانسان يرنوا اليها مذ خلق الله الارض وما عليها . فهم يبحثون عما اختصت به بنات (أتيله وهيسبرياس) (١)

وما أحلام المساواة بأقل قيمة من الاوهام التي جرى الانسان خلفها قبل ذلك لولا أنها سترتطم بصخرة الفروق الطبيعية في الناس

وإذا أضفت الى هذه الفروق ما ينتاب المرء من الهرم ثم الفناء رأيت أن ذلك بعض ما ملئ به هذا الوجود من المظالم الطبيعية التي لا مناص للانسان من حكمها

---

(١) ثلاث سات من هذين الاوين يذكر تاريخ الخرافات إن كان لهن بستان من شجر التفاح ثمره من الذهب الوهاج ويحرسه مارد جبار قتله (هرقل)

الباب الأول

طباع الشعوب النفسيه

الفصل الأول

روح الشعوب

طريقة الطبيعيين فى تقسيم الانواع — تطبيق هذه الطريقة على الانسان — بيان العيب فى تقسيم الشعوب البشرية الجارى عليه العمل حتى الآن — أساس التقسيم النفسى — المثال الوسطى للشعب — كيف يتوصل إلى معرفته بالنظر والاستدلال — العوامل النفسية التى يتكون منها المثال الوسط فى الشعوب — تأثير الاجداد والابوين — الطبائع النفسيه العامة التى توجد فى كل فرد من أفراد الشعب الواحد — تأثير الاجيال الماضية العظيم على الاجيال الحاضرة — أسباب هذا التأثير على التحقيق — كيف انتشرت روح المجموع من العائلة إلى القرية ومن القرية إلى المدينة ومنها إلى الاقليم — مزايا فكرة المدينة ومضارها — الاحوال التى يتعذر معها تكوين روح للمجموع — مثال إيطاليا — كيف ان الشعوب الطبيعية بادت وحلت محلها الشعوب التاريخية

يبنى الطبيعيون تقسيمهم أنواع الكائنات على صفات وخواص تظهر دائماً في النسل بصورة واحدة . ونحن نعلم الآن هذه الخواص تتحول شيئاً فشيئاً بما يطرأ على النسل من التغير غير المحسوس . لكن إذا نظرنا الى الزمن التاريخي وحده جاز لنا القول بأن الانواع لا تتغير لان ماعرف من ذلك الزمن قصير

وقد تمكن الطبيعيون بطريقتهم هذه من تقسيم الانسان الى أنواع يمتاز بعضها عن بعض تمام الامتياز مستدلين على ذلك ببعض الفروق الجسمية التامة الوضوح كلون البشرة وشكل الجمجمة وحجمها . وغلب على الظن ان الجنس البشرى مكون من أصول شتى . ويرى العلماء المحافظون على التقاليد الدينية أن هذه الانواع هى القبائل والشعوب . ولقد أصاب بعضهم حيث قال إنه ان صح عند البعض أن الزنجى والقوقازى من فصيلة (القولماسيين) فان علماء التكوين يؤكدون بالاجماع أن هذين القسمين نوعان كبيران لا يجوز أن يكونا تولدا من زوجين اثنين ثم افترقا عن أصلهما شيئاً فشيئاً بمرور الزمن

على أن الخواص الجسمانية ولا سيما ما أمكن أن يقع منها تحت البحث الآن لا تسمح بتقسيم الجنس البشرى إلا الى أنواع عامة قاصرة جداً لان الفروق لا تظهر إلا فى الشعوب المتباينة فى الخلقة تباينا عظيما كالبيض والزنوج والحمر مع أن من

الأمم من تتشابه في أجسامها وخلقتها وتختلف كثيراً في مشاعرها وعملها فتختلف بذلك أيضاً في مدنيتها ومعتقداتها وفنونها وليس من المسلم جمع الاسبانى والانكليزى والعربى فى نوع واحد لان الفوارق العقلية الموجودة بينهم بادية لكل ناظر تقرأ مسطورة في كل صفحة من تواريخهم

وبنى بعضهم تقسيم الامم التي لا تظهر فيها الفروق الجسمانية على مميزات أخرى كاللغة والدين والجامعة السياسية إلا أن هذا التقسيم لا يحتمل البحث لظهور خطأه

لكن إذا أعجزتنا الخواص الجسمانية واللغات والاقليم والجامعة السياسية في تقسيم البشر فان علم النفس يعيننا على الوصول الى غرضنا في هذا الباب إذ يرشدنا الى وجود بعض الصفات الادبية والعقلية التى تؤثر فى تطور الأمم مستورة خلف النظامات والمتون والمعتقدات والتقلبات السياسية وإلى أن روح الشعب تتكون من مجموع تلك الصفات

لكل شعب مزاج عقلى ثابت بمقدار ثبوت الخواص الجسمانية . نعم لا جدال في أنه يوجد بين المزاج العقلى وبين طبيعة المخ نسبة . غير أن العلم لم يبلغ من الارتقاء درجة تعرف بها حقيقة ذلك التركيب فلا يجوز لنا حينئذ أن نتخذه قاعدة

لتقسيم الانواع . على أن معرفة ذلك لن تؤثر فى بيان الرابع العقلى الناشىء عنه كما يدلنا النظر عليه

والصفات الأدبية والعقلية التى يتكون من مجموعها روح الامة هى خلاصة ماضيها وميراث أجدادها وعلة حركتها التى تسير عليها . وقد يظهر ان تلك الصفات مختلفات اختلافاً كبيراً فى أفراد الامة الواحدة الا أن الاستقراء يؤيد أن أغلب أفراد تلك الامة مشتركون فى صفات نفسية عامة وثابتة ثبات صفاتهم الجسمية التى يمتاز بها نوعهم عن نوع أفراد أمة أخرى . والصفات النفسية كالصفات الجسمانية تتجدد مع النسل تجدداً منتظماً مستمراً

ومن مجموع الصفات النفسية التى يشترك فيها أفراد كل أمة تتكون الصفة العامة التي يعبر عنها بخلق الامة أو الخلق الملى . وبعبارة أخرى يتكون المثال الوسط الذى يمكن اتخاذه عنواناً للامة . فاذا أخذنا ألف انجليزى أو ألف فرنساوى أو ألف صينى حيثما وجدناهم شاهدنا بينهم اختلافاً كبيراً . لكن أفراد كل جماعة يشتركون مع بعضهم فى صفات عامة بمقتضى النسل الملى الخاص بهم . وشيوع ذلك فيهم يسهل تصور الرجل الفرنساوى أو الانجليزى أو الصينى فى عمومه كما يتصور الطبيعيون بواسطة الصفات الجسمانية الفرس أو الكلب مثلا لان الوصف الذى

يصفون به هذه الحيوانات لايندرج تحته الا الفرس أو الكلب من حيث اشتراك فرد كل نوع مع غيره من أفراد ذلك النوع في صفاته الجسمانية العامة فلا يشمل متفرقات كل نوع أو آحاده المختلفة

ويكفي أن تكون الامة قديمة قدماً يجعلها ممتزجة المجموع ليسهل على كل ناظر تمييز المثال الوسط من أفرادها . فاذا نزل الانسان ببلد فأول مايستوقفه من أهلها الصفات السائدة عليهم جميعاً . والسبب في ذلك كثرة توارد تلك الصفات على الزائر . وأما الفوارق الشخصية فانها تفوته لعدم تكرارها . وهذا هو السر في أن الانسان يميز لساعته الانجليزي أو التلياني أو الاسباني . ويسهل عليه أن يضيف إلى الواحد منهم صفات عامة أدبية وعقلية هي تلك الصفات الاولية التي قدمنا ذكرها . وذكر (الانجليزي) أو (الجاسكوني) أو (النورمندي) أو (الفلامندي) يقابل في الذهن صورة خاصة من مثال معروف من قبل يسهل علينا وصفه وتعريفه . فاذا طبق هذا الوصف على فرد بذاته قد لايكون جامعاً بل قد يكون غير صواب لكنه اذا طبق على المجموع كان منضبطا تمام الانضباط . وطريقة بيان المثال الوسط في أمة بذاتها تشبه في كونها غير تنبهية تمام الشبه طريقة الطبيعيين في تفسيم الانواع

ولوحدة المزاج العقلي عند جمهور كل أمة أسباب بسيطة معروفة في علم وظائف الاعضاء فالواقع أن كل فرد ليس ثمرة والديه وحدهما بل هو أيضاً ثمرة أمته أعني سلسلة أجداده . وقد أحصى أحد العلماء الاقتصاديين وهو موسيو (شيسوان) أن الفرنساوي يحمل في جسمه دم عشرين مليوناً على الاقل من معاصري سنة ١٠٠٠ وذلك باعتبار أن في كل قرن ثلاثة أجيال . وهو يقول أن جميع سكان كل ناحية أو أقليم يشتركون حتما في أجدادهم فهم مخلوقون من طينة واحدة وعليهم كلهم طابع واحد . وهم على الدوام ينجذبون الى ذلك المثال الوسط أي إلى تلك السلسلة الطويلة الثقيلة التي هم آخر حلقة من حلقاتها . فنحن أبناء آبائنا وشعبنا معاً وليس شعورنا وحده هو الذي يجعلنا نرى الوطن أماً ثانية بل الشعور والخواص الجسمية والوراثة معا هي التي تولد في نفوسنا تلك العاطفة .

واذا أردنا أن نعبر عن العوامل التي يخضع الانسان لها في حركته تعبيراً بسيطاً قلنا انها ثلاثة أنواع أولها وأشدها تأثيراً عامل الاجداد . والثاني تأثير الوالدين . والثالث تأثير البيئة وقد ظن بعضهم أن هذا الاخير هو أشدها فعلا وهو في الحقيقة أضعفها . لان البيئة وما يندرج تحتها من المؤثرات المادية والمعنوية التي تعمل في الانسان مدة حياته وعلى الاخص في زمن التربية

لاتؤثر فيه الا أثراً ضعيفاً . وانما يعظم أثرها اذا توالى بالتناسل زمناً طويلا

وعلى ذلك فالرجل ابن أمته دائما مهما كان عمله . ومجموع الافكار والمشاعر التى يأتى بها أفراد كل أمة يوم يولدون هى روح تلك الامة وهى خفية فى ماهيتها ولكنها ظاهرة ظهوراً كلياً فى آثارها لانها هى الحاكمة في الحقيقة على تطور الامة .مثل الأمة كمثل مجموع الخليات التى يتكون منها الفرد الواحد . حياته حياة تلك الخليات بخطئها المدقصيرة . وحياة الذات التى تتكون منها أكثر دواماً . فلها حياتان حياة ذاتية هى الخاصة بكل خلية وحياة كلية هى حياة الفرد التى يتكون من مجموعها . كذلك للفرد فى الامة حياة قصيرة هى حياته الذاتية وحياة طويلة هى حياة المجموع الذى يتألف منه ومن غيره . وهذه الاخيرة هى حياة الامة التى ولدته والتى هو عامل من عوامل دوامها والتى هو على الدوام تابع لها

وعليه اعتبار الامة ذاتاً دائمة مجردة عن الزمان وتلك الذات تتألف من أفرادها الاحياء الذين يشخصونها فى زمن معلوم ومن سلسلة الاموات الذين هم أجدادها . لذلك اذا أردنا أن ندرك معنى الامة الحقيقى ينبغى أن نمتد بها فى الماضى وفي المستقبل معاً . وأشد الفريقين قوة هم الاموات لانهم هم الاكثرون عددا وهم

المؤثرون في عالم الحركات اللاشعورية الذى يخضع لسلطانه العقل والاخلاق فى جميع المظاهر فالامة مسيرة بتأثير أمواتها أكثر مما هى مسيرة بتأثير أحيائها . والاولون هم وحدهم الذين كونوها وهم الذين أوجدوا مافي الاحياء من الافكار والمشاعر قرناً بعد قرن واليهم ترجع أسباب حركة أهل العصر لان هؤلاء لا يخضعون لمزاج أسلافهم المادي وحده بل هم متأثرون أيضاً بما كان لآبائهم من المشاعر والافكار . والحاصل أن الاحياء هم الاموات بلا جدال يشقون برذائلهم كما ينعمون بما كان لهم من الفضائل والمكرمات

ولا تحتاج الامة فى تكوين مزاجها العقلي الى زمن طويل كالذى تحتاجه الانواع الحيوانية فى تكونها . إلا أن ما تحتاجه من ذلك ليس بالشيء القليل ودليله أن الامة الفرنساوية لم تتمكن من توحيد مشاعرها وأفكارها واتخاذ روح خاص بها إلا بعد عشرة قرون كاملة (١) ومع ذلك لا يزال هذا التكوين ناقصاً جدا

(١) هذا الزمن وإن كان طويلاً بالنظر إلى [illegible] قصير في الواقع لانه لا يعدل أكثر من ثلاثين جيلاً [illegible] في أنه كان كافياً [illegible] ذاته لتحوير بعض الصفات العامة في الامة [illegible] أن [illegible] من الزمن في مدة [illegible] أنتجت بالسرعة نتائج كبيرة فقد [illegible] المؤثر الواحد [illegible] تأثيره بنسبة [illegible] ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ وهكذا » ويضاعف الاثر بنسبة متوالية هندسية « ٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦ وهكذا »

وربما كان أهم أثر ترتب على الثورة الفرنساوية تعجيل هذا التكوين باجهازها على الموانع الناتجة من تعدد الجنسيات الصغيرة في قلب الامة إذ كان منا (البيكاردى) و (الفلامندى) و (البورجونيوني) و (الجاسكونى) و (البروتونى) و (البروفنسى) وغيرهم من الطوائف التى كانت تتناسم البلاد الفرنساوية في الزمن الماضي وكلهم شعوب مختلفة لكل منها مشاعر وأفكار تميزه عن غيره فلم يكن من السهل جعل الواحدة تامة . وهذا هو السبب في كثرة الخلف وقيام النزاع بيننا من أغلب الاوقات مما لا تعرفه أمة ذات وحدة كاملة كالامة الانجليزية . هنالك امتزج السكسونى والنورمندى والبروتونى فكونوا عنصراً متشابها فترى كل شيء في حياة الامة متشابهاً وبسبب هذا الامتزاج تمكنت عند القوم الاسس الثلاثه التى يتكون روح الامة منها وهي · مشاعر عامة ، ومنافع عامة . ومعتقدات عامة ومتى بلغت أمة هذه الدرجة من

فالعلل هي لوغارتمات المعلومات كما ان خانات الشطرنج هي لوغارتمات عدد حبات البر في مسألة تضعيف تلك الحبات بعدد خانات الرقعة وكذلك في المبالغ ذات الربح المركب يعظم نمو المال بحيث يصير عدد السنين لوغارتم رأس المال المتجمد وتمثل تلك الاسباب يمكن الدلالة على سير اغلب الحوادث الاجتماعية بمنحنيات هندسية تحكى ذلك التضعيف وقد توصلت في موضع آخر الى بيان ان هذه المنحنيات يمكن تحليلها بواسطة عملية القطع المكافىء أو القطع الزائد ويرى موسيو شيسون ان ذلك يكون اسهل بواسطة المعادلة ذات الاس المتغير

الوحدة القومية اتحد جميع أفرادها بدون انتباه خاص على جميع مرافقها المهمة وانتفت من بينهم أسباب الخلف الكبير

وحدة المشاعر والافكار والمعتقدات والمنافع الناشئة من كرور الدهور تقوى فى الامة وحدة المزاج العقلى وتزيد فى ثباته وتحدث للامة سلطاناً كبيراً . بهذا بلغت روما أوج عظمتها فى غابر الزمان وبه ارتفعت انكلتره الى أعلى سلم مجدها فى هذه الايام . ومتى زالت هذه الوحدة انفرط عقد الامة وكذلك سقطت صولة الرومان يوم أضاعوها

كان لكل أمة في كل زمان نصيب من تلك المشاعر والافكار والتقاليد والمعتقدات الموروثة التى يتكون منها روح المجاميع البشرية إلا أن نموها سار سيراً بطيئاً . وكان وجود الروح أولا في العائلة ثم انتشر منها في القريه ثم فى المدينة ثم فى الاقليم ولم يعم جميع السكان إلا فى أزمان قريبة منا هنالك وجدت فكرة الوطن بالمعني المفهوم لنا في هذا العصر لانها لا تصير واضحة إلا إذا تم تكوين الروح ولهذا لم ترق فكرة الوطن عند الاغريق الى أبعد من فكرة المدينة ودامت مدائنهم فى حرب مستمر لان كل واحدة منها كانت أجنبية فى الواقع عن البقية كذلك لم تعرف الهند منذ أى عام شىء وحدة القربة فعاشت من

ذلك الحين تحت حكم الاجنبي تقوم فيها ممالكه بسهولة كما يدول بسهولة

فكرة المدينة كوطن خاص ضعيفة من حيث القوة الحربية ولكنها كانت دائماً شديدة الأثر في ارتقاء الحضارة ومع كون روح المدينة أصغر من روح الوطن فهي أغزر مادة وأعظم ثمرة فلقد دلتنا آثينا في الزمن القديم وفلورنس والبندقية في الازمان الوسطى على درجة الحضارة والرقي التي تصل اليها المجموع البشرية الصغيرة

ومتى طال الزمن على المدن الصغيرة والاقاليم الصغيرة وهي مستقلة عن بعضها تتولد في كل منها روح ثابتة يتعذر معها غالباً مزجها بعضها ببعض ليتكون في مجموعها روح ملي واحد . وإذا تيسر ذلك أحياناً بأن لم يكن هناك من الفوارق الكبيرة مايحول دون تحقيقه فهو لا يتم في أيام بل لابد له من قرون عدة ولابد للقيام بمثل هذا العمل من أمثال (ريشليو) و (بسمارك) على أنهم لاقبل لهم به إلا إذا هيأته الايام . ولقد يتأتى لبلد مثل إيتاليا أن تصير فجأة دولة واحدة بتأثير العوامل الاستثنائية إلا أن من الخطأ الاعتقاد بأنها تنال بهذا روحاً ملياً . وأنا لا أزال أرى في إيطاليا هذا (البيمونتي) وذاك (الصقلي) وذلك (البندقي) و (الروماني) وغيرهم ولكني لا أرى (الايتالي)

كل أمة دخلت فى ميدان الحضارة وأصبحت ذات تاريخ قديم يجب اعتبارها أمة صناعية لا أمة طبيعية مهما كانت حالها أعنى سواء اتحدت عناصرها أم لا . إذ الامم الطبيعية لا يكاد يكون لها وجود فى العصر الحاضر اللهم إلا في البلاد المتوحشة هناك يتيسر العثور على أمم خالية من الخليط . واما أكثر الامم المتحضرة الآن فأمم تاريخية

وليس من موضوعنا أن نبحث فى أصل الامم فسواء عندنا كونها الطبيعة أو التاريخ . وإنما الذى يهمنا منها هى الصفات التى حدثت لكل واحدة منها بمرور الزمان الطويل عليها واستقرت عدة قرون فى أحوال واحدة وتجمدت بالتناسل جيلا بعد جيل وأصبحت ثابتة ثباتاً كبيراً وصلحت لتمييز كل أمة عن أختها

الفصل الثانى

حدود تغيير أخلاق الامة

تغير خلق الامة هو القاعدة الظاهرة الثبات — سبب ذلك — ثبات الخلق الأصلى وتغير الخلق الثانوى — مقابلة الصفات النفسية بالصفات الحيوانية الثابتة والصفات المميزة — فى أن تأثير البيئة والحوادث والتربية قاصر على الصفات النفسية الثانوية — تطور الصفات — أمثلة لذلك فى أزمان مختلفة — رجال الهول الأكبر — ماذا كان يكون شأنهم فى زمن غير زمانهم — كيف ان الصفات القومية تبقى بعد الثورة — امثلة مختلفة — الخلاصة

انعام النظر فى تطور حضارة الأمم هو الذى يدلنا على درجة ثبات مزاجها العقلى . وأول ما خيل للباحث أن القاعدة العامة فى ذلك هى التغيير لا الدوام . فمن لم يقرأ التاريخ بامعان يظهر له أن روح الامة قابل فى بعض الاحيان لتغير عظيم سريع . والكافة يحسبون أن هناك فرقاً كبيراً بين صفات الانجليزى فى عهد (كرامويل) وصفاته فى العصر الحاضر وكذلك بين التليانى الحاضر ذى الحذر والحيلة وبين التليانى المندفع المفترس الذى

يصفه « ينفينتوسماليني » وعندنا ماهو أقرب من ذلك أريد فرنسا . فكم من تغير ظاهرى حدث فى صفاتنا منذ عدد قليل من القرون بل من السنين . وأى مؤرخ لم يشر الى الفرق الموجود بين خلق الامة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . كذلك يشاهد فرق عظيم فى أيامنا بين وحوش العهد (١) وعبيد نابليون الطائمين وأولئك هم هؤلاء ولكن يخيل أنهم بدلوا بآخرين فى بضع سنين

ولكى نوضح أسباب هذه التقلبات ينبغى أن نذكر القراء بأن النوع النفسى يتركب كالنوع الجسمانى من صفات أساسه ثابتة قليلة العدد وأن بجانب هذه الصفات صفات أخرى ثانوية متغيرة وقابلة للتحول . فالنور يتغير ظاهره بالعلف والزهر ينكيف بفعل البستانى حتى تغيب حقيقته عن غير ذى الخبرة والنور والزهر لا يزالان كما كانا من حيث صفات النوع الاساسية وإنما كان التغير فى صفاته الثانوية . ولا تزال الصفات الاولى ميالة على الدوام الى الظهور فى كل نسل جديد بالرغم من جميع الحيل التى يعالج النوع بها

كذلك للمزاج العقلى صفات أساسية ثابتة كصفات الانواع

---

(١) يريد فريقاً من الفرنساويين اداروا الحكومة زمناً ايام الثورة وكانوا قساة

الجسمانية . وله أيضاً صفات ثانوية تتغير بالسهولة وهذه الاخيرة
هى التى تتأثر بفعل البيئة والحوادث والتربية وغير ذلك من العوامل

ولا يغيبن عنا أمر مهم فى هذا الموضوع ذلك أن للمزاج
العقلى مقدورات وإن شئت فقل قابليات أخلاقية لا تظهر فى كثير
من الاوقات لعدم ملائمة الاحوال لظهورها . فاذا اصطلحت تلك
الاحوال ظهر من خلالها شخصية جديدة فى الامة لكنها عرضية
لا تدوم إلا وقتاً محدوداً . لذلك شوهد فى أيام المحن الدينية والسياسية
الكبرى أن الامة ظهرت بمظهر جديد يخيل للناظرين أنه ناشئ
من تغير عظيم فى خلقها الملى كأن انقلاباً حصل فى أخلاقها وأفكارها
وحركتها الا انه تغير عرضى مالبث أن زال . والذى خيل فى بادئ
الامر كان طارئاً كما تضطرب وجه البحيرة الهادئة من فعل العاصفة
ولا يدوم هذا الاضطراب زمناً طويلا

والقابليات التى ظهرت فى بعض الازمان بفعل الحوادث
الاستثنائية هى التى مثلت لنا الذين لعبوا دوراً مشهوداً فى الانقلابات
السياسية والدينية كأنهم مخلوقون من طينة أخرى فكانوا فى
نظرنا عمالقة ونحن أبناؤهم الفاسدون . وما كانوا إلا رجالا مثلنا
صادفتهم حوادث حركت فيهم تلك القابليات التى نشترك معهم
فيها . مثال ذلك غيلان (العهد) الذين وقفوا فى وجه أوروبا المدججة
فقد بلغت منهم قساوة القلب الى أنهم كانوا يعدمون خصومهم

إلى الفصيلة الأدنى خلف بينهم وهم في الحقيقة أناس من أواسط الامة الطيبين أولى السكينة مثلنا ولولا الزمان لوجدناهم مطمئنين إلى صناعتهم أو تجارتهم أو زراعتهم أو الحرفة التي كانوا فيها من قبل يعملون . لكن حوادث خارقة أثارت في أمخاخهم بعض الخلايا التي كانت هادئة في الزمن العادى فبرزوا في تلك الصورة الهائلة التي يقصر السلف عن إدراكها ولو أن « روبسبيير » وجد بعد مائة عام من زمنه لكان قاضياً من أتقى قضاة الصلح صديقاً لشماس قريته وكذلك « فوكيه تينفيل » كان يكون قاضياً للتحقيق يطارد الجناة ويشد الخناق على المجرمين بصرامة أكبر وقساوة أعظم مما كان عليه أقرانه و « سان جوست » كان يكون معلماً ماهراً في المدرسة ذا حرمة لدى الرؤساء فخوراً بنيشان المجمع العلمى الذى كان يحوزه بلا محالة . وحتى لا يكون في نفس القارىء شك من صحة هذه الفرضيات يكفي أن نلفته الى مافعل نابليون بأولئك الوحوش الذى لم يمهلهم الزمان ليقتل بعضهم بعضاً فقد كان من أمرهم معه أن صار أغلبهم عمالا في أقلام كتاب المصالح ومحصلين وقضاة ومديرين لان الامواج التي هاجتها العاصفة التي أشرنا اليها كانت قد سكنت وعادت البحيرة المضطربة الى هدوها

لا تتغير صفات الامة الاساسية حتى في أشد أوقات الاضطراب

والمحن التى تظهر فيها الامة بمظهر التغير الكلي فى شخصيتها وغاية ما هنالك أن تلك الصفات تبدو فى ثوب غير ثوبها الاول فلما أراد أهل الثورة أن يقضوا على طريقة الحكم السابق وصنعوا للامة نظاماً قبضت فيه السلطة العليا على جميع اختصاصات الحاكمين فكان روح نظامهم هذا متفقاً مع روح النظام الاستبدادى المبنى على الاثرة وجمع السلطة فى اليد العليا وهو الذى امتزج بروح فرنسا فى عهد ملوكها المطلقين مدى خمسة عشر قرناً

ما من ثورة قامت فى البلاد اللاتينية إلا وظهر خلفها ذلك النظام العتيد وبعبارة أخرى ذلك الميل المتأصل العضال أريد ميل النفوس الى الخنوع لحاكم قادر . والسبب فى ذلك ثبات جذور ذلك الميل فى النفوس حتى أصبح جزءاً من روح الامة . ولولا هذا الروح لما ساد نابوليون ببهاء الفتوحات التى جرت على يده : ألا نرى أنه لما استعاض الجمهورية بسيطرته أخذت صفات الامة الوراثية تظهر كل يوم بقوة أشد وكان لابد من ذلك فلو لم يقم بالامر حينئذ ذلك الضابط المدرب لقام به واحد من الافاقين وبعد مضي خمسين عاماً قام وارث اسمه فما ظهر فى الناس حتى صبو اليه أجمعين والتفت حوله أمة تعبت من الحرية وتلهفت على الاسترقاق . إذن ليس شهر « برميير » (١) هو الذى أقام صرح

---

(١) اسم الشهر الذى حصل فيه الانقلاب

نابليون اسكنه روح أمته التي أقبلت راكعة أمام قدميه الحديديين(١)

والسبب في أن أثر البيئة في الانسان يظهر عظيما هو كون محله الصفات الثانوية الوقتية أو هي القابليات الاخلاقية التي سبقت الاشارة اليها ، فالتغيير ليس جوهريا بدليل أن أخلد الناس الى السكينة إذا عضه الجوع أصبح لا يبقى على شيء ولا يحجم أمام أية جريمة كانت بل ربما افترس مثيله ولا يقال مع ذلك أن طبعه الأصلي تبدل بطبع جديد

إذا نتج عن الحضارة في الامة أن صار أفرادها في ثروة طائلة ومالوا إلى اللذات والشهوات التي هي أثر من آثار الغنى وتولد في الآخرين حاجات كبيرة من دون أن يكون لهم من الوسائل ما يسدونها به ، إذا تم ذلك استاء الناس وتولاهم الحرج وتأثرت

(١) كتب (تاين) يقول «ما تحرك حركته الاولى حتى خر الفرنساويون ركعا طائعين واقاموا على ذلك كما يقيم المرء على حاله الفطري فأما الأصاغر من جند وفلاحين فقد أشبهوا الحيوان في احلاصه واما الأكابر من اولي الرتب وأرباب الوظائف فمنهم استدلوا دلة البيزنطيين وما قاوم الجمهوريون أدنى ميل انه اتخذ من بين صفوفهم أصلح الوسائل لتأييد سلطانه وكان له منهم الأعيان في مجلسهم والنواب في ندوتهم ومستشارو الدولة وقضاة المحاكم والولاة من جميع الجامعات . ادرك من اول نظرة في بقايا حريتهم ومساواتهم ما فيهم من الميل الى السلطة وحب الاستعلاء والتفوق حتى وهم مسودون وعرف حسبهم للمال وانطباعهم على اللذات فسار في ذلك المصوق حمية سلامة الأمة والوزير والمدير وحكام الأخطاط ولكل رجل واحد في ثوبين ثوب فطري وثوب مرركس »

حركة الامة وحدثت انقلابات من صنوف شتي لكن صفات الامة الاساسية تبقى بادية وسط هذا الاستياء وتلك الانقلابات بدليل أن انجليز الولايات المتحدة أظهروا فى حروبهم الاهلية ما امتازوا به من المثابرة وقوة العزيمة كما هم يظهرون ذلك الآن فى تخطيط المدن وانشاء المدارس الجامعة والمصانع الكبرى فالصفة لم تتغير وإنما الذى تغير هو محل ظهورها

والخلاصة إننا إذا نظرنا الى جميع العوامل التى لها تأثير فى مزاج الامة العقلى رأينا ذلك التأثير دائماً فى الوجهة الثانوية منه وقلما يكون فى مميزاته الاساسية وإذا أثر فيها فذلك لا يظهر إلا إذا دام المؤثر زمناً طويلا ، ولسنا نذهب الى أن صفات الامم النفسية غير قابلة للتغيير ، بل الذى نريد تقريره هو أن تلك الصفات على درجة كبيرة من الثبات وأن مثلها فى ذلك مثل الصفات الجسمانية وأن هذا الثبات هو العلة فى بطء تحول خلق الامة فى بطون الليالى والايام

الفصل الثالث

الطبقات النفسية للأمم

تقسيم الأمم النفسى كالتقسيم الطبيعى مبنى على بعض صفات اصلية ثابتة — فى بيان تقسيم الأمم النفسى — الأمم الأولى — الأمم الدنيا الأمم الوسطى — الأمم العليا (الراقية) — العناصر النفسية التى بنى عليها هذا التقسيم — الخلق — الأدب — فى أن الصفات العقلية تتغير بالتربية — فى ان الصفات الأخلاقية ثابتة وهى العنصر القابل للتعرف الأمة — شأن تلك الصفات فى التاريخ — السبب فى ان الأمم المختلفة لا تتفاهم ولا تتأثر الواحدة منها بالأخرى — السبب فى استحالة غرس حضارة امة راقية فى امة واطئة

اذا راجعنا فى أحد كتب التاريخ الطبيعي قواعد تقسيم الأنواع علمنا أن الصفات الثابتة أى الاساسية التى يبنى عليها ذلك التقسيم قليلة العدد جداً يكفي بعض أسطر اسردها . وسببه ان العلماء لايعتمدون فى ذلك الا على الصفات التى لاتتغير ولا يلتفتون الى الصفات الثانوية مهما كثرت وكانت منتزعة منها كذلك الحال فى صفات الأمم النفسية فاذا بحثنا فى التفاصيل

وجدنا فروقاً كثيرة بين فرد وآخر وأمة وأمة . واذا رجعنا الى الصفات الأولية وحدها رأيناها قليلة . وسنأتى بأمثلة توضح كيف أن تلك الصفات القليلة هى التى تؤثر فى حياة الامم

ولما كان بيان قواعد تقسيم الامم النفسية متوقفاً على البحث في الاحوال النفسية لكل أمة وذلك يقتضى وضع مؤلفات كثيرة فقد اقتصرنا هنا على بيان تلك القواعد بوجه عام

تنقسم الامم من حيث صفاتها الاخلاقية العامة إلى أربعة أقسام . الامم الاولى — الامم الدنيا — الامم الوسطى — الأمم الراقية

والأمم الأولى هى التى لا أثر للتعليم عندها بل بقيت فى طورها القريب من الحيوانية وهو الطور الذى قطعه أجدادنا فى دورهم الحجرى القديم ويمثل لتلك الأمم فى هذه الايام بأهل (فوبجيان) [١] واسترااليا

ويلى تلك الأمم الأمم الدنيا . وأخص مثال لها الزنوج وفيهم بصيص حضارة لكن ليس عندهم أكثر من بصيص وتاريخهم يدل على أنهم لم يتمكنوا من الارتقاء إلى أكثر من حضارة

---

(١) احدى جزر الرأس الأخضر بالمحيط الاطلانطيق وسكانها ١١٠٠٠٠ نسمة

بربرية وإن ورثوا فى بعض الاحوال عن غيرهم حضارة أرقى كما وقع لاهل (دومينيج) [1]

ثم الأمم الوسطى وهى الصين واليابان والمغول والأمم السامية . وهذه الأمم بلغت من الحضارة درجة راقية لم يفتهم فيها غير الامم الاوروبية الراقية فلا يندرج فيها إلا الامم الهندوسية الاوروبية فهى وحدها التى أظهرت مقدرة على الاختراعات فى الفنون والعلوم والصناعة سواء كان ذلك فى الزمن القديم زمن اليونان والرومان أوفى عصرنا هذا وهى التى أوصلت الحضارة الى درجة ارتقائها الحالى وهى التى اكتشفت البخار والكهرباء . وأقل هذه الامم ارتقاء كالهندوس على الاخص بلغت من الفنون وعلوم الادب والفلسفة حداً لم تتمكن أمم المغول والصين ولا الأمم السامية من اللحاق بهم فيه

تمتاز هذه الاقسام الاربعة عن بعضها بحيث لا يخطي أحد في تمييزها فان التباين العقلى بين بعضها والبعض الآخر واضح جلى . وانما الصعوبة تبدو عندما يراد تقسيم أمم كل قسم الى أنواع وفروع . فالانجليزى والاسبانى والروسى من الامم الراقية ولكنا نعلم أن الفرق عظيم بين هؤلاء وهؤلاء

ومن أراد استجلاء هذه الفروق ينبغى له أن يقرر حقيقة

---

(١) جزيرة اخرى فى المحيط المذكور

خلق كل أمة على حدتها . وسنفعل ذلك فى أمتين على سبيل التمثيل لهذه النظرية ولبيان أهمية أثيرها مكتفين فى ذلك ببيان حقيقة العناصر النفسية الرئيسية التى توصلنا إلى التفرقة بين بعض الشعوب والبعض الآخر

مما يشاهد دائماً فى الامم الاولى والدنيا عدم قدرتها على التعمل مع تفاوت فى ذلك . وأعنى بذلك قدرة الذهن على جمع الافكار المتحصلة من المحسوسات السابقة أو الالفاظ التى تدل عليها ومقابلتها بالافكار المتحصله من المحسوسات الحالية واستجلاء الفرق بين الحالين . ولسنا فى حاجة إلى أن نذهب إلى المتوحشين لنلتقى بتلك الامم لان الطبقات النازلة عند الامم الاوروبيه نفسها شبيهة بالامم الاولى شبها كاملا . وسبب عدم القدرة على التعمل عند تلك الامم سرعة التصديق وفقدان ملكة النقد فقداناً تاماً بخلاف الانسان الراقي فان ملكة جمع الافكار واستخلاص نتائجها قوية فيه وملكة النقد وتحرير المعقول نامية للغاية

كذلك نرى ملكة التنبه والتأمل ضعيفة جداً فى الأمم الدنيا وملكة التقليد نامية جداً . ومن عاداتهم استنتاج النتائج الباطلة العامة من الجزئيات وهم ضعاف فى النظر وفى استجلاء نتائج الاستقراء وأخلاقهم متقلبة وعدم تبصرهم عظيم وقاعدة عمالهم

مايعرض لهم من الالهام وقت العمل فمثلهم مثل (عيسوى) [١] يبيعون عن طيب خاطر حقوق البكورة الآجلة بطبق من العدس العاجل . انما يخطو الانسان خطوة كبيرة فى سبيل رقيه متى تمكن من ردّ منفعة عاجلة لمنفعة آجلة وجعل انفسه غرضاً ثم أمام في طلبه

وعدم القدرة على تصور النتائج البعيدة المرتبة على الاعمال والميل الى الاسترشاد بالهام الساعة التى يوجد المرء فيها يقضيان عليه كما يقضيان على الأمــة كلها بالبقاء فى حاله التأخر . وهما لايخرجان من تلك الحال الاّ اذا تمكنا من الحكم على ميولهما وبعبارة ثانية اذا اكتسبا ارادة يتمكنان بها من امتلاك نفسيهما هنالك تصل الأمة الى فهم معنى للنظام وضرورة التضحية فى سبيل مطلب معروف والصعود على سلم الحضارة ولو أنى سئلت عن مقياس يقاس به مستوى كل أمة بالنسبة لغيرها منذ عرف التاريخ لأشرت الى درجــة اقتدار كل أمــة على حكم نزعاتها اللاتدبيه ولقلت ان الرومان فى العصور الخاليــة والانكليز والأمريكان فى الزمن الحاضر هما الأمتان اللتان بلغت فيهما هذه

« ١ » هو من ولد اسحاق ولد سنة ١٨٣٦ قبل المسيح وكان أكبر اخوته ذهب للصيد ذات يوم فعضه الجوع ولقى أخيه وكان يحمل طبقاً من العدس فاشتراه منه مقابل تنازله له عن حقوق الأبوة التى له تقتضى كونه بكراً سه

المقدرة منتهاها وقد كان لها شأن كبير جداً فيما وصلا اليه من الارتقاء والعظمة

قلنا ان المزاج العقلى نتيجة مجموع العناصر النفسية التى قدمنا ذكرها ودرجة نمو ذلك المجموع وان ذلك المزاج هو الوسيلة فى تمييز الأفراد والأمم

ومن تلك العناصر النفسية ماهو راجع الخلق ومنها ماهو راجع الى الذكاء

فأما الأمم الراقية فتفترق عن غيرها فى الامرين ولكن الفارق الأساسى بين أنواع هذه الأمم الراقية هو الخلق. تلك نظرية أهمية اجتماعية كبرى. لذلك وجب أن نوفى القول فى بيانها

يتكوّن الخلق من اجتماع بعض العناصر المخصوصة وامتزاجها ببعضها. وتلك العناصر هى التى جرى علماء النفس فى هذا العصر على تسميتها بالمشاعر. وأهم المشاعر فى تكوين الخلق المثابرة وقوة العزيمة والقدرة على حكم النفس وكلها ماكانت راجعة الى الادارة. ونذكر أيضاً من تلك العوامل الأساسية الأدب وان كان هو فينا خلاصة مشاعر مختلفة. ونريد بالأدب ذلك الاحترام الوراثى للنواميس التى تقوم عليها حياة الأمة فمعنى كون الأمة ذات أدب أن لها قواعد ثابتة تسير عليها وأنها لاتنفك عن مراعاة تلك القواعد وهذه القواعد تتغير بتغير

الأزمان والأمكنة . ومن ذلك يظهر أن الأدب متغير وهو في الواقع كذلك . وانما الذي يجب له هو أن تلزمه الأمة الواحدة في الزمن المعين . والأدب ابن الخلق فهو لا يثبت الا اذا صار وراثيا أعني غير تنبهي . وعظمة الأمة تابعة على وجه العموم لدرجة ارتقاء الأدب فيها

والصفات العقلية قابلية صغيرة للتغير بتأثير التربية . وأما الصفات الاخلاقية فيكاد أن لا يكون للتربية أثر فيها واذا أثرت ففي ذوي الطباع الهينة أي الذين لا ارادة لهم فهم يميلون الى حيث يوجهون . ويكثر وجود هذه الطبائع الهينة في الأفراد ولكنها قلما توجد في أمة بأكملها . واذا شوهدت في أمة من الأمم فانما يكون ذلك في أيام سقوطها

تنتقل الاكتشافات العقلية بالسهولة من أمة الى أخرى وأما آثار الخلق فلا تتعدى أمتها . لأنها العناصر الأساسية الثابتة التي يتميز بها المزاج العقلي في كل أمة راقية . ومن هنا كانت الاكتشافات العقلية ملكا شائعاً للانسان أنى وجد . وأما آثار خلق كل أمة طيبة كانت أو رديئة فخاصة بالأمة التي هي فيها ومثل الخلق مثل الصخرة لا تؤثر فيها الأمواج على تعاقب الأيام الا قليلا في حافتها والخلق شبيه بالعنصر الثابت لكل نوع من أنواع الكائنات كمسبح الأسماك ومنقار الطير وسن الحيوان المفترس

خلق كل أمة هو علة تطورها في حياتها وهو الذي يقرر مستقبلها وهو موجود على الدوام خلف العوامل التي فرضها الناس سبباً لأعمالهم فقالوا بالاتفاق وهو لاحول له ولا قوة وبالرحمة وهي أمر خيالي وبالمقدور المحقق وهكذا مما اتخذته الأمم ناموساً في حياتها على حسب اختلاف المعتقدات

تأثير الخلق في حياة الأمم عظيم . وأما تأثير العقل فضعيف على تفاوت فيه . ولقد كان الرومان أيام سقوطهم ذوي عقول أرقى من عقول أجدادهم القاهرين ولكنهم سقطوا لأنهم فقدوا صفاتهم الأخلاقية فأضاعوا المثابرة والعزيمة والجلد الذي لا يعرف الوهن وفقدوا القدرة على التفاني في نصرة المطلب واحترام القوانين الي حد التقديس . وتلك الصفات هي التي كانت السبب في عظمة آبائهم الأولين

الخلق هو الذي يمكن ستين ألف انجليزي من إخضاع مائتين وخمسين مليوناً من الهنود وكثير من هؤلاء في مستوى واحد معهم من حيث العقل وبعضهم يفوقونهم جداً في الفنون الراقية وغور المباحث الفلسفية والخلق هو الذي جعلهم على رأس مملكة استعمارية هائلة لم يعرف التاريخ نظيراً لها حتى الآن

الخلق لا العقل هو الذي تقوم عليه الجمعيات البشرية وتؤسس الديانات وتبنى الممالك وهو الذي يجعل الأمم تحس وتعمل

وما كان كسب الأمم كثيراً من شحذ الأذهان والتعمق في التفكير (١)

المزاج العقلي هو الذي يرشد الأمة الى تكوين فكرتها في الوجود وفي الحياة وعلى حسب صورة ذلك عندها تختط لنفسها طريقاً تسير فيه وسنأتي فيما بعد بأمثلة تقرب ذلك الى الاذهان . كل انسان يتأثر بالأشياء الخارجة عنه تأثراً خاصاً به فيتولد فيه من ذلك شعور خاص وفكر خاص ويندفع إلى العمل على نحو خاص مخالفاً في هذا كله ما يجري عليه غيره

«١» السبب في شدة ضعف اعمال علماء النفس الذين اتخذوا هذا العلم صناعة لهم وقلة آثارهم العملية هو على الأخص قصرهم مباحثهم على المسائل العقلية وانصرافهم عن البحث في المسائل الاخلاقية وكأني لا اعرف ممن اشار الى اهمية الخلق وكونه اصلا في تكوين مزاج الامم العقلي غير موسيو «بولهان» في رسالة «الاخلاق» وموسيو «ريبو» في وريقات جاءت لسوء الحظ قصيرة جداً . قال هذا العلامة الأستاذ بمدرسة فرنسا «ان الذكاء صورة ثانوية من صور تطور العقل والعنصر الأساسي هو الخلق ونتيجة الأول اذا نمى نمواً كبيراً اعدام الخلق غالباً فعسى لبيان احوال الأمم النفسية ومقارنتها بعضها ان يديم البحث في الخلق كما ذهبنا اليه لان اهمية هذا العلم لا تخفى فهو مصدر تاريخ الأمم ومرشد سواسها ولولا انه لا ينال في المعامل الكيماوية ولا يوجد في بطون الكتب وانما ينال بالأسفار الطويلة والوقوف على احوال الامم لكان من العجب العجاب ان العلماء لم يشتغلوا بتدوينه الى اليوم بل ليس هناك ما يدلنا على قرب اشتغال محبي علم النفس به . فهم يتركون الآن شيئاً فشيئاً ما عكفوا عليه من قبل ويقصرون ابحاثهم على مسائل تتعلق بعلمي التشريح والفسيولوجيه»

مما يفترق عنه في مزاجه العقلي . وينتج من ذلك أن من افترقوا في أمزجتهم العقلية لا يتأتى لبعضهم أن يدرك كنه بعض .
واختلاف الأخلاق هو علة استمرار التنافر بين الامم ومن المتعذر استفادة شيء من التاريخ إذا لم يكن طالب الفائدة عالماً أن الامم المختلفة لا تشترك مع بعضها في الشعور ولا في المعقول ولا في العمل وأنه لذلك لا يتأتى لبعضها أن يفهم بعضاً . نعم في لغات الأمم المختلفة ألفاظ متشابهات يظنونها مترادفات غير أن تلك الالفاظ على اشتراكها تحدث في نفس كل أمة مشاعر وأفكاراً ومعقولات غير ماتثيره من ذلك في الاخرى ولا يعرف الانسان مقدار الفرق العظيم بين أفكار الامم المختلفة إلا إذا طالت عشرته لقوم غير قومه حتى ولو لم يعرف منهم إلا من تكلم لغته وتربى تربيته.
ويمكن الوقوف على ذلك أيضاً من غير اغتراب بالمقارنة بين الرجل المتحضر وبين المرأة المتحضرة ومعرفة الفرق العظيم بينهما من الجهة العقلية فمهما ارتقت درجة المرأة في التعليم يرى الباحث أنهما قد يشتركان في المصالح ويتحدان في المشاعر ولكنهما لا يتفقان مطلقا في تسلسل المعقولات وقد يتحادثان قرونا ولا يتفقان لان لكل واحد منهما مزاجاً يخالف مزاج الآخر مخالفة تامة فلا يتأثر بالاشياء الخارجة عنه كما يتأثر رفيقه ولو لم يكن بينهما من الفروق إلا اختلاف معقوليهما لكفى بذلك مانعاً من الاتفاق

ذلك الفرق العظيم في المزاج العقلي هو الذي يوضح علة عدم نجاح الامم الراقية في نقل حضارتها إلى أمم أدنى منها

قال أصحاب سيادة العقل الصرف أن التعليم ينجح في هذا السبيل ولا يزال قولهم مرعياً لدى الكافة ولست أعرف لهؤلاء الفلاسفة مذهباً أسوأ تأثيراً من هذا الرأي ولا أشد ضرراً. نعم يجوز أن يحرز أحط الافراد في سلم الانسانية جميع معلومات الاوروبى كلها بما قد يوجد فيه من قوة الحافظة التي اختص بها الأفراد الأدنون وليست هي من مميزات الرجال ومن المسلم أن نيل الزنجى أو الياباني الشهادة الثانوية أو رتبة المحاماة أمر ميسور ولكنه لا ينال بذلك الاطلاء سطحياً لا تأثير له في مزاجه العقلي وأما كيفيات التفكير والمعقولية وعلى الاخص أخلاق الغربيين فليس في قدرة التعليم مهما كان أن يحصلها له لانها لا تنال إلا بالوراثة ولذلك الزنجى أو هذا اليابانى أن ينال جميع الشهادات الممكنة لكنه لن يرقى مطلقاً بذلك الى صف الاوروبى العادى. فنى عشر سنين يمكن تلقينه التعليم الذى يتلقاه انكليزي تام التهذيب ولكن ألف سنة قد لا تكفى لصيرورته انكليزياً حقيقياً أعني رجلا يعمل كما يعمل الانكليزى فى جميع أطوار الحياة. وعليه إذا غيرت أمة بسهولة لغتها أو نظامها أو معتقداتها أو فنونها فانما يكون التغيير سطحياً ولا يكون جوهرياً إلا إذا تيسر لها أولا تغيير روحها

الفصل الرابع

درجة الفروق بين الأفراد والأمم

كلما ارتقت الأمة عظمت الفروق بين أفرادها والبعض الآخر — في أن افراد الأمم الدنيا متساوون في القوة العاقلة — لاجل معرفة الفروق بين الأمم يجب ان تكون المقارنة بين طبقاتها العليا لا الوسطى — في أن تقدم الحضارة يزيد في الفروق التي بين الأفراد والتي بين الأمم — نتيجة هذا الفارق — في الأسباب النفسية التي تمنع اتساع هذا الفارق — في أن الفرق عظيم جداً بين افراد الأمم الراقية من حيث القوة العاقلة وضعيف جداً من حيث الخلق — في أن الوارثة تميل دائماً بالأفراد الراقية الى المثال الوسط في الأمة — في المشاهدات التشريحية التي تؤيد تدرج الفروق النفسية بين الامم وبين الأفراد وبين الأنواع « الذكر والانثى »

لا تمتاز تلك الامم الراقية عن الامم الدنيا بالصفات النفسية والجسمانية وحدها بل تمتاز عنها أيضاً باختلاف العناصر التي تدخل في تكوين كل أمة . فمستوى العقل يكاد يكون واحداً عند جميع أفراد الامم الدنيا ذكوراً وأناثا وتشابههم في ذلك يعطي مجموعهم مسحة المساواة التامة التي يحلم بها الاشتراكيون في هذا الزمان

وأما عند الامم الراقية فالقاعدة هى اختلاف الافراد وكذا النوع اختلافاً كبيراً

ومن أجل ذلك لايصح قياس الفروق بين الأمم بطبقاتها الوسطى بل بالعليا ان وجدت . اذ الفرق ضعيف بين الطبقات الوسطى فى أمم الصين والهند وأوروبا من حيث العمل وهو جسيم بين طبقاتها العليا

وكلما تقدمت الحضارة اتسعت دائرة الفروق بين الأمم وبين أفراد كل أمة وعلى الأخص أفراد الأمم الراقية . فثمرة المدنية والحضارة هي على الضد من آمالنا تزيد الفروق بين الناس من حيث العقل ولاتميل بهم الى المساواة أبداً

ومن أخص آثار المدنية ايجادفرق بين بعض الأمم وبعضها وبين طبقات كل أمة راقية لما تضطرّ اليه كل واحدة من الأعمال العقلية كلما ارتقت حضارتها والمشاهد أن تلك الأعمال فى ازدياد مستمر

انظر الى تطور الصناعه تره يقضى على الطبقات النازله فى الأمم المتحضرة بالبقاء على عمل محدود جداً ليس فيه مايزيد من قوتهم العاقلة بل هو يؤدى الى اضعافها . ولقد كان العامل منذ مائة عام أستاذاً ماهراً يقدر على صنع آلات الساعة بأكملها مثلا

فأصبح اليوم آلة تحرك غيرها . ثم هو لا يعمل الا في قطعة واحدة فتفنى حياته في خرق الخروق بعينها أو جلاء القطعة بذاتها أو ادارة الآلة الواحدة . وينتج من ذلك سرعة انطفاء القوة العاقلة فيه . وأما صاحب المصنع أو المهندس الذي يستصنع ذلك العامل فان أحوال المسابقة والاكتشافات تدفعه الى تحصيل المعلومات الكثيرة وتولد فيه من الهمة الذاتية وتنمى عنده من قوة الاستنباط أكثر مما كان يحتاجه منذ قرن من الزمان . ولما كان عقله يعمل على الدوام فانه يزداد على الدوام طبقاً لناموس وظائف الاعضاء

أشار (توكفيل) الى تدرج الفروق الذي نبحث فيه بين طبقات الأمم في زمن لم تبلغ الصناعة فيه من الارتقاء مبلغها في الوقت الحاضر فقال « كلما توسع الناس في تطبيق قانون توزيع العمل ضعفت قوة العامل وحد عقله وزادت تابعيته لغيره فالصناعة تتقدم والصانع يتأخر والفرق ينمو كل يوم بين العامل ورئيسه »

تشبه الأمة الراقية في هذا العصر من حيث العمل هرماً له درج . الجموع النازلة كتلته العظمى والطبقات السامية

المدارك قسمه الأعلى[1] وفي الذروة ترى النبغاء من العلماء وأصحاب الاكتشافات وأساتذة الفنون والكتاب وهؤلاء طائفة صغيرة جداً بالنظر لمجموع الأمة ولكنهم هم الذين يقاس بهم مستوى البلاد العقلي في سلم المدنية . فما أصدق قول (سان سيمون) « اذا أضاعت فرنسا الخمسين الأول من علمائها ومثل ذلك من أهل فنها وصناعتها وزراعتها قطعت رأس الأمة وأصبحت جسماً بلا روح ولكنها اذا فقدت جميع موظفيها الرسميين فان تلك الحادثة تحزن الفرنساويين لطيب نفوسهم ولكنه لا ينجم في البلد لذلك من الضرر الا اليسير »

كلما ارتقت الحضارة زادت سرعة اتساع الفروق بين طبقات الأمة وربما بلغت تلك السرعة نسبة المتوالية الهندسية المعروفة في علم الحساب . ولولا أن الوراثة تحول دون تعاظمها لوصل

« ١ » قلت السامية المدارك ولم اصف المتعلمة لأن من الخطأ الذى جرت عليه الامم اللاتينية خاصة الاعتقاد بوجود نسبة بين العلم والذكاء اذ يكفي في التعلم ان يكون المتعلم على جانب من القوة الحافظة ولكنه لا يستلزم شيئاً من صفات القوة العاقلة أو القوة التصورية أو الهمة الذاتية أو قوة الاستنباط . وكم يلتقي الانسان بمن جمع اليه من الشهادات شيئاً كثيراً وهو ذو عقل صغير وكم يلتقي بغير متعلم يتوقد ذكاء وعليه فدرجة هرمنا العليا تتألف من عناصر جميع الطبقات في جميع الحرف أفراد امتازوا بسمو المدارك ولكن الظاهر بحكم الوراثة أن عدد اولئك المتفوقين يكثر في الطبقات الراقية وان ذلك هو علة اصلاء الطبقات المذكورة

الفرق مع الزمن بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا الى مثل ماهو عليه بين الأبيض والاسود بل بين هذا وبين القرد .

والواقع أن هنالك أسباباً كثيرة تعترض اتساع الهوة بين الفريقين بمقدار ماتؤدي اليه النظرية وحدها . أولها أن التمايز لايحصل فى غير القوة العقلية الا قليلا فلا يتناول الخلق أو هو لايتناوله الا بضعف شديد . وقد علمنا أن الشأن الأول فى حياة الأمة للخلق لا للعقل . ثانيها أن الجموع سائرة فى هذا الى القوة بما تنظم من شؤن نفسها والجموع تبغض المتفوقين على اختلاف أنواعهم بغضاً لاينكره أحد . ومن المحتمل أنها اذا كمل نظامها تهدم كل قوة عقلية تعترضها كما أسقطت طائفة الاشراف منذ مائة عام . ومتى عمت سيادة الاشتراكية فى أوروبا فلا أمل لها بالبقاء بعض الزمن الا اذا أتت على كل من خصه الله بموهبة تميزه أقل تمييز عن أدنى درجة الأواسط

هذان السببان عارضان لأنهما متولدان عن الحضارة والحضارة متغيرة بطبيعتها وهنالك سبب أهم منهما يحول بين خيار النبغاء وبين سرعة افتراقهم عن بقية طبقات أمتهم من الجهة العقلية . وأهميته آتية من كونه طبيعياً غير قابل للتغيير . وهو ناموس الوراثة القوى فانه يقضى بزوال من تتسع الهوة بينه وبين أواسط أمته أو بارجاعه الى ذلك الوسط . اذ المشاهدات القديمة

التى دونها جميع العلماء المشتغلين بالوراثة تدل على أن نسل العائلات رفيعة المدارك ينتهى فى الغالب بالفساد ثم بالزوال التام عاجلاً أو آجلاً . والعاجلة أرجح

وعليه يظهر أن سموّ الادراك فى الرجل مقرون بفساد النسل ولولا أن ذروة الهرم التى أشرنا اليها من قبل تتغذى على الدوام من العناصر التى دونها لانقرضت عن آخرها ولو جمع النبغاء من كل طبقة وأسكنوا ناحية على حدة فتناسلوا لتولد منهم أمة مصابة بالفساد ولا تلبث أن تزول . وما أشبه كبراء المتفوقين فى سموّ المدارك بالنباتات ذات الضخامة الفاحشة التى ينميها البستانى بحيله الصناعية اذا تركت وشأنها ماتت أو رجعت الى حدها الوسط الذي هو العنصر الأقوى لأنه جماع ما ورث عن الاجداد

والمتأمل فى أحوال الأمم يرى أن أفراد كل واحدة منها وان افترقوا كثيراً من جهة العقل يكادون لا يفترقون من جهة الخلق الذى هو الصخرة الثابتة رغم تقلب الأزمان كما بيناه لذلك ينبغى عند البحث فى أحوال أمة أن ينظر اليها من جهتين فهى لا قيمة لها من الجهة العقلية إلا بالنبغاء وهم قليلو العدد واليهم يرجع رقى علومها وآدابها وفنونها . فقيمة الأمة تقاس بطبقاتها الوسطى دون غيرها لأن قوة الأمة تابعة لمستوى هذا الوسط .

فيجوز أن تستغنى الأمم عن النبغاء فى العقل ولكنها لا حياة لها إلا بالخلق . وسنبرهن على ذلك قريباً

ينتج مما تقدم أن الفروق من جهة العقل فى نموّ مستمرّ وأما الخلق فانه يدور دائماً حول المثال الوسط . وهو الذى يرتقى رويداً رويداً وفيه يشترك السواد الأعظم من أهل كل أمة . ويرى هذا الأس المتين ولا سيما عند الأمم الراقية مكسواً بطبقة لطيفة من المدارك السامية . وتلك الكسوة هى التى لها المقام الاول فى تقدم الحضارة وارتقاء المدنية ولكنها لا أهمية لها من حيث التأثير في أصل الجنس وكأنى بها كسوة من اللباس فما أشبه الاثنين فى البلاء والتجدد فطبقة النبغاء على الدوام فى تحلل وعلى الدوام فى تجدد والذى يبليها ويجددها هى الطبقة الوسطى التى لا تتغير إلا قليلاً جداً لأن أقل تحول فيها يقتضى تجدد الوراثة قروناً طويلة

ولقد وصلنا منذ بضع سنين من طريق البحث التشريحى الى اثبات هذه الفروق التى ندلل عليها الآن من طريق البحث النفسى . ولما كان البحثان قد أديا الى نتيجة واحدة فسأورد للقارئ بعض نتائج البحث الأول وهى مؤيدة بما أجريته من قياس عدة آلاف من الجماجم القديمة والحديثة لأفراد من أمم مختلفة . واليك أهمها نقلاً عن كتابنا (أبحاث تشريحية ورياضية

في اختلاف حجم المخ ونسبة ما بين ذلك ودرجة العقل) المطبوع سنة ١٨٧٩ وهى رسالة قرظها المجمع العلمى وجمعية (الأنتروپولوچى):

« توجد نسبة كبيرة بين حجم الجمجمة وعقل صاحبها كما »
« ثبت ذلك من المشاهدات المتكررة وان اختلفت النسبة »
« المذكورة فى بعض الأفراد . ويتبين للباحث أن الفارق بين »
« الأمم الدنيا والأمم الراقية ليس هو زيادة حجم جماجم أفراد »
« الاولى اذ هذا الفرق يسير بل هو وجود أمخاخ نامية نمواً »
« كبيراً فى أفراد الأولى وعدم هذا النوع في أفراد الأمم »
« الدنيا . وحينئذٍ فالتمييز بين الأمم يكون بآحادها لا بجموعها »
« اذ الفرق الوسط فى حجم الجمجمة ليس كبيراً بين أفراد أمة »
« وبين أفراد أخرى ماعدا الأمم الدنيا »

« واذا قابلنا بين جماجم الأجناس البشرية فى الحاضر »
« والماضى وجدنا أن الأمة التى تكثر الفروق بين جماجم أفرادها »
« من جهة الحجم هى الأرقى فى حضارتها . وأنه كلما تقدمت »
« الحضارة ازدادت فروق الجماجم . وينتج من ذلك أن الحضارة »
« لا تسير بالناس الى المساواة العقلية بل الى التفاوت بينهم »
« فى ذلك كثيراً . ولا توجد المساواة التشريحية والتركيبية الا »
« بين أفراد الأمم المنحطة . فالفرق يسير جداً بين قوم من »
« الهمج كلهم نعمل عمل أخيه . والفرق عظيم جداً بين الزارع »

« التي تنحصر بضاعته من اللغة في ثلثمائة كلمة وبين العالم الذي »
« يعرف من ذلك مائة ألف وما يقابلها من المعاني »

« وينبغي أن نشير هنا الى أن الفرق الذي تحدثه المدنية »
« بين الأفراد مشاهد أيضاً بين الجنسين . فالرجل والمرأة »
« متساويان على التقريب من جهة العمل عند الامم المنحطة وفي »
« الطبقات النازلة من الأمم الراقية . ويظهر ذلك الفرق وينمو »
« كلما ارتقت الأمة في المدنية »

« ومن المشاهد أيضاً وجود فرق بين حجم جمجمة الرجل »
« وجمجمة المرأة تزداد سرعة نموّه بتقدم المدنية . وذلك ثابت »
« حتى من مقارنة جماجم من انفقا في العمر والقامة والوزن كما »
« جربناه نحن وهذه الفروق ضعيفه جداً في الأمم المنحطة »
« وكبيرة جداً في الأمم الراقية . وقلما يزيد حجم جماجم النساء »
« في الأمم الراقية عن حجم جماجم نساء الأمم المنحطة . فبينا »
« نشاهد أن متوسط حجم جماجم الباريزيين في الصف الاول »
« من النمو نرى متوسط حجم جماجم الباريزيات مساوياً لأقلّ »
« حجم وقع تحت المشاهدة فهو يقرب من حجم جماجم »
« الصينيات ولا يزيد إلا بسيراً عن حجم جماجم نساء (كاليدونيا »
« الجديدة) »

الفصل الخامس

تكوين الأمم التاريخية

كيف تكونت الأمم التاريخية — الاحوال التي تساعد على امتزاج شعوب مختلفة وتكوين امة واحدة — تأثير عدد افراد كل فريق من الفرق المجتمعة واختلاف اخلاقهم و بينهم وهكذا — نتيجة التوالد — علة انحطاط درجة المولدين — عدم ثبات الاخلاق النفسية المتحصلة من التوالد — كيف تثبت تلك الاخلاق — ازمنة التاريخ الحرجة — التوالد عامل قوي في تكوين الامم الحديثة وهو ايضاً عامل قوي في تحليل المدنية — اهمية نظام الطوائف — تأثير البيئات — في انها لا تؤثر الا في الامم الحديثة التي لا تزال في دور التكوين بعد ان يكون التوالد فكك عرى اخلاقها الموروثة — في انه لا تأثير لها في الأمم القديمة — امثلة شتى — في ان معظم الأمم التاريخية بأوروبا لا تزال في دور التكون — نتائج ذلك السياسية والاجتماعية — السبب في قرب انقضاء زمن تكون الامم التاريخية

قدمنا أنه لم يبقَ بين الأمم المتحضرة شعوب حقيقية بالمعنى العامي . وأن الموجود الآن هو أمم تاريخية تكوّنت اتفاقاً بتأثير الفتوحات والهجرة والسياسة وهكذا فهي حينئذ مركبة من أشخاص مختلفي الجنس أصلاً

والآن نبحث في كيفية امتزاج الشعوب المختلفة وصيرورتها أمة تاريخية ذات أخلاق نفسية واحدة

ونلاحظ أولا أن بعض العناصر التى تجتمع اتفاقاً ببعضها لا تمتزج دائماً . فالشعوب الألمانية والمنكارية والسلافية وغيرها من التى تعيش تحت الدولة النمساوية ممتازة عن بعضها امتيازاً تاماً ولم تظهر فيها حتى الساعة ميلاً الى الامتزاج . وكذا الارلندى الخاضع لحكم انكلتره لا يزال حافظاً لكيانه وأما الأمم المنحطة جداً كأصحاب الجلود الحمر (بوروج) و (الأستراليين) و (التسمانيين) وغيرهم ففضلاً عن كونهم يمتزجون بالامم الراقية فانهم يفنون فيها إذ دلت التجربة على أن كل أمة منحطة تزول باختلاطها مع أمة راقية لا محالة

ولامتزاج الشعوب بعضها ببعض وصيرورتها أمة جديدة متحدة اتحاداً تاماً ثلاثة شروط

الشرط الاول هو أن لا تكون الشعوب المتوالدة مختلفة العدد كثيراً . والثانى أن لا يكون الفرق فى أخلاقها كبيراً . والثالث أن تعيش زمناً طويلاً تحت تأثير عوامل بيئة واحدة

والشرط الاول أهم الثلاثة . فاذا نزح عدد قليل من البيض وأقام بين الزنوج فى فيهم ولم يترك من دمه أثراً في نسله .

وهكذا فني الفاتحون الذين أقاموا في أمم كثيرة العدد . وقد ترك اللاتينيون في بلاد (الغلوا) والعرب في مصر حضارتهم وفنونهم ولغتهم ولكنهم لم يتركوا دمهم

والسبب الثاني أيضاً أهمية كبيرة . نعم يجوز أن يكون الفرق بين الشعبين المجتمعين كبيراً ومع ذلك يمتزج أحدهما بالآخر كالابيض والاسود غير أنه لا يتكوّن من المولدين إلا أمة منحطة انحطاطاً كبيراً بحيث لا تكون قادرة بحال على أن تخلق لنفسها حضارة أو تدوم على حضارة . ذلك لان اختلاف المتوالدين يحلل خلق الفريقين ويفكك آدابهم فاذا ورث المولدون من البيض والزنوج مدنية راقية أضاعوها سريعاً كما وقع لاهل (سان دومينج) وأما بين الامم الراقية فالتوالد عامل قوى من عوامل الارتقاء متى تقاربت بعضها من بعض في الجنس كالانكليز والالمان أمريكا أما اذا كان الفرق كبيراً فالتوالد يورث فساد النسل لا محالة

لذلك نرى جميع الامم التي يكثر بين أهلها عدد المولدين من النوعين الابيض والاسود محكوماً عليها باستقرار الفوضى اللهم إلاّ اذا تولت حكمها يد من حديد . ذلك هو مصير البرازيل من دون شك فليس فيها من البيض إلاّ القليل وقد أصاب (اغاسيز) الشهير بقوله « من زار البرازيل لا يسعه انكار المدهور الناجم

عن التوالد فيها أكثر من غيرها . فهو يمحو فضائل البيض وفضائل السود وفضائل الهنود على السواء ويخلف نسلاً ضعيفاً جسماً وعقلاً بل لا يقدر الواصفون أن يصفوه »

توالد الامم يغير مزاجها الجسمي ومزاجها العقلي معاً . وهو الوسيلة الوحيدة التي يمكن معها تغيير ماهية الخلق الاصلي في الامة لانه لا يفل الوراثة إلا الوراثة فاذا طال الامد على التوالد تولد من فعله أمة جديدة ذات صفات جسمانية ونفسية جديدة

وتكون الاخلاق المتولدة على هذا النحو متقلبة ضعيفة في مبدأها ولا تثبت إلا بتمادي فعل الوراثة فيها . فأول أثر لتوالد أمتين هو ابادة روح كل منهما أعني مجموع المشاعر والافكار العامة التي هي سر قوة الشعوب وبدونها لا توجد أمة ولا وطن . وهذا الدور هو أشق الادوار في حياة الامم لانه دور نشوء وتأسيس وقد اجتازته الامم جمعاء فلا تكاد توجد أمة أوربية غير قائمة على أطلال أمم أخرى وهو مملوء بالانقسامات الداخلية والمطلبات المختلفة ولا ينقضي حتى تستقر الاخلاق النفسية الجديدة

ومما تقدم يتبين أن التوالد عامل أصلي في تكوين الامم الجديدة ومؤثر قوي في تحليل الامم القديمة . لذلك أصابت الامم التي بلغت درجة عالية من الحضارة في ابتعادها عن الاختلاط بالأجانب ولولا التمسك بحبال العصبية لما أمكن للآريين على

قلة عددهم لما أغاروا على الهند منذ ثلاثة آلاف عام أن يستبقوا شعبهم ولا يتلفهم تلك الامم السوداء التي كانت تحيط بهم من كل جانب في بطونها ولما قامت للحضارة قائمة في شبه جزيرة الهند العظمى وتوالدوا بينهم وبين الهنود . ولو أن الانكليز تساهلوا في العصر الحاضر لفرت دولة الهند الضخمة من أيديهم منذ زمن بعيد . والحاصل أنه يجوز أن تفقد الامة شيئاً كثيراً من مشخصاتها وأن تنتابها محن كبرى ثم تسترد قوتها وتنهض ثانياً ولكنها لا تقوم من رقدتها اذا أضاعت روحها

ومتى مالت الحضارة الى الذبول وأصبحت فريسة المغيرين عليها من طريق الهدو والسلم أو من طريق العنف والقوة في الامة أخذ أثر التوالد يظهر وجعلت أخلاقها تتحلل وتتركب فتهدم الحضارة أولاً تهدم روح الامة ويخلو السبيل لقيام حضارة جديدة بعد تحلل الأخلاق النفسية القديمة وقيام أخلاق جديدة على أطلالها

واذا دخلت الامة الجديدة في دور التكوين بعد اجتيازها الأدوار المتقدم ذكرها ظهر أثر السبب الثالث الذي جاء ذكره في أول هذا الفصل . أعني أثر البيئات ضعيف جداً في الأمم القديمة وقوي جداً في الأمم الجديدة . وعلة ذلك أنه متى خلى الطريق من الأخلاق النفسية القديمة بتأثير التوالد أصبح من

السهل على البيئة أن تؤثر تأثيراً محسوساً في تلك الأرض الخالية وبمرور العصور عليها تتولد أخلاق جديدة ثم تثبت نهائياً . وإذ ذاك يقال ان أمة جديدة قد تكونت وهكذا تكونت أمتنا (فرنسا)

وعليه فتأثير البيئة يكون كبيراً أو صغيراً بحسب الاحوال سواء فى ذلك البيئة المكانية والادبية . وهذا هو سبب اختلاف آراء الباحثين فيه اختلافاً كلياً وقد قلنا أنه عظيم فى الأمة التى في دور التكوين أما فى الامة العريقة في القدم بتكرار الوراثة فيكاد يكون معدوماً

أما دليلنا على ضعف أثر البيئة الأدبية فهو عدم تأثير حضارتنا الغربية فى الأمم الشرقية وان طال زمن الاختلاط بيننا وبينهم كما هو مشاهد فى الصينيين المتوطنين بالولايات المتحدة . وأما دليلنا على ضعف تأثير البيئة المكانية فهو صعوبة استيطان البلد الاجنبي . إذ من المشاهد أنه اذا نقل جنس من الاجناس انساناً كان أو حيواناً أو نباتاً من مسقطه الى بلد مختلفة عن بلده فني ولم يتحول . وبرهانه أن عشرة أمم قد افتتحت مصر وكانت مصر مقبرة الجميع . وما استطاع فاتح أن يستمر فيها . جاءها اليونان والرومان ثم الفرس والعرب ثم الترك وغير هؤلاء وهؤلاء ولم يترك فيها واحد منهم أثراً من دمه . انما النموذج الذى

يشاهد فيها هو ذلك الفلاح ذو السحنة الصادقة فى الدلالة على أنه سلالة أولئك الذين رسمهم مهرة الصناع المصريين على قبور الفراعنة وفى جدران قصورهم منذ سبعة آلاف من السنين

لا يزال معظم الامم التاريخية بأوروبا في دور التكوين فينبغى للباحثين أن يقفوا على هذه الحقيقة ليفقهوا تاريخ هذه الامم . وليس فى الغرب الآن أمة تم تكوينها وثبتت صفاتها إلا الامة الانكليزية حيث لم يبقَ من أثر للبروتونى ولا للسكسونى ولا للنورمندى بل عفت آثار الكل وأخلوا المكان لعنصر جديد متسق الاجزاء متناسب الصفات . أما فى فرنسا فلا يزال الفرق موجوداً بين (البروفنسي) وبين (الاوفرنى) و (النورمندى) على أنه اذا لم يتمّ تكوين المثال الفرنسوى الوسط الى الآن فان المثال الوسط لبعض الاقاليم قد وجد . لكن من الاسف أن هذه الامثلة الوسطى لا تزال متفاوتة بعضها عن بعض فى الافكار والاخلاق ولهذا كان من الصعب الاهتداء الى نظامات تلائم أحوالهم جميعاً . ولولا حصر السلطة حصراً قويًّا لما اتحدوا في بعض أحوالهم العقلية . والفوارق فى المزاج العقلى بين الفرنساويين بعضهم وبعض هى علة انقسامهم على كثير من المسائل المتعلقة بالمشاعر والمعتقدات كما أنها علة الانقلابات السياسية التى هى أثر

من آثار ذلك الانفسام وان يزول هذا وذاك إلا بفعل الزمان

واقد كان هذا أيضاً حال الامم الاخرى التي جرتها الحوادث الى الاحتكاك بعضها ببعض فكانت الانشقاقات والاضطرابات فيها على قدر افتراقها فى المزاج العقلى . فاذا كان الخلف واسعاً استحال بقاء المختلفين تحت لواء واحد وعز اخضاعهم جميعاً الى قانون بذاته وتاريخ جميع الممالك العظيمة فى جميع الازمان شاهد على ذلك . فانها دالت فى الغالب بزوال من شيدها . وليس بين الامم الحاضرة أمة تمكنت من اخضاع أمم مختلفة عنها كل الاختلاف الا الانكليز والهولنديون فى القارة الاسيوية . وهم انما نجحوا فى ذلك بعدم تعرضهم لعادات تلك الامم وأخلاقها وشرائعها وبتركهم إياهم فى الواقع يحكمون أنفسهم بأنفسهم مكتفين من السيادة بسهم من الضرائب والعمل فى التجارة والقيام على تأييد السكينة وحفظ النظام

وما عدا هذه الاستثناآت النادرة يتعذر قيام الدول الضخمة التى تضم اليها أمماً مختلفة إلا بالقوة . على أنها تكون أيضاً عرضة للزوال بوسائل القوة ولا يمكن أن تنشأ أمة ويثبت قدمها إلا اذا تكونت على مهل بامتزاج العناصر التى قلت الفروق بينها وباستمرار توالدها ودوام حياتها تحت سماء واحدة وخضوعها

لتأثير بيئة واحدة وانقيادها لمعتقدات واحدة ونظامات واحدة اذا احتمع ذلك لعناصر مختلفة أمكنها بعد مرور عدة قرون أن تصير أمة واحدة

وكلما تقادمت الدنيا في الوجود زادت الامم ثباتاً ورسوخاً وقل تحوّلها بتأثير الامتزاج شيئاً فشيئاً وكلما بلغت الانسانية عقداً من العمر أثقلت كاهلها عوامل الوراثة وتعذر عليها التحوّل عن حالتها وعلى ذلك يمكن أن يقال ان دور تكوين الأمم التاريخية فى أوروبا أوشك أن ينقضى

الباب الثانى

ظهور أخلاق الأمم فى عناصر مدنيتها

الفصل الأول

فى أن عناصر المدنية فى كل أمة هى مظاهر روح الأمة فى الخارج

عناصر كل مدنية هى المظاهر الخارجية لروح أممها — اختلاف أهمية هذه العناصر باختلاف الامم — قد يكون الشأن الاول للفنون أو الآداب أو النظامات أو غيرها من العناصر بحسب الأمم — التمثيل لذلك فى الزمن القديم بالمصريين والاغريق والرومانيين — التمثيل بالفنون — مدلول الفنون — استحالة دلالة احد عناصر المدنية وحده على درجة رقيها — العناصر التى توفر على الأمة اسباب تفوقها — قد تكون العناصر منحطة فلسفياً ولكنها ذات قيمة كبيرة من الوجهة الاجتماعية

عناصر كل مدنية من لغة ونظامات وأفكار ومعتقدات وفنون وآداب هى التى يجب اعتبارها مظاهر خارجية لروح من

أوحدها الا أن أهمية هـذه العناصر فى الدلالة على ذلك مختلفة باختلاف الشعوب والازمان

وقلما يخلو كتاب من الكتب المؤلفة فى مبتكرات الفنون من تقرير أن هـذه المبتكرات هى ترجمان فكر أممها الأمين وأنها الدليل الصادق على مدنيتها

ولاشبهة فى أن الأمر كذلك فى الغالب الا أنها قاعدة ليست عامة بحال وليس رقى الفنون فى الأمة مقترناً على الدوام برقى الأمة العقلى فمن الأمم من تكون فنونها عنوان رقيها ومنها من تكون بالغة درجة رفيعة في المدنية وليس للفنون عندها الا شأن صغير

ولو أننا اضطررنا الى وضع تاريخ لمدنية كل أمة باعتبار أحد تلك العناصر دون البقية لوجب أن نسند كل تاريخ الى عنصر خاص فتكون الفنون فى هذه والنظامات فى تلك والحديبة فى الأخرى والتجارة عند الرابعة وهكذا وذلك مبحث يجب أن نبدأ بتقريره لأنه يفيدنا فى بيان سبب تحول عناصر المدنية تحولاً متفاوتاً باستقلالها من أمة الى أخرى

يشاهد الفرق فى نمو عناصر المدنية على الأخص عند المصريين والرومانيين فى الزمن القديم بل يشاهد عندها أيضاً اختلاف الرقى فى فروع العنصر الواحد

فأما المصريون فقد كانت صناعة الأدب عندهم منحطة وصناعة النقش ضعيفة وكان فن العمارة وصنع التماثيل من أعظم المبتكرات ولا يزال أهل هذا العصر معجبين بما شيده المصريون من المباني وقد تركوا لنا أيضاً من صناعة التماثيل طرفاً (كشيخ البلد) و (الكاتب) و (راحوتب) و (نفرتارى) وكثير غيرها مما يصح أن يتخذ مثالا ينسج على منواله ولم يصل الاغريق الى التفوق عليهم فيه الا ردحاً من الزمن قصيراً

ويذكر بحاث المصريين قوم روما الذين لعبوا دوراً مهماً فى التاريخ ولم يعوزهم المعلمون والأمثلة التى يحتذونها فقد كانوا قريبى عهد بالمصريين والاغريق ومع ذلك لم يتوصلوا الى ايجاد فنون خاصة بهم وهم أول الأمم التى عرفها التاريخ ظهوراً فى فتوحات الفنون اذ كانوا لا يعنون بها الا قليلا ولا ينظرون الدنيا الا من جهة ما فيها من الربح فيعتبرونها من السلع التى تباع فى الأسواق كالمعادن والعطريات والتوابل وغيرها مما يطلبونه لدى الأمم الأخرى وقد بلغوا أوج سؤددهم وليس لهم فنون وطنية حتى أنهم بعد أن استقر ملكهم ووفرت أموالهم وارتقت ميولهم فى الزخرف وتأثرت بذلك مشاعرهم الفنية بعض التأثر ماراحوا يلتمسون من الاغريق أمثلة ينسجون على منوالها وصناعاً يمدون مايطلبون

واذا أردنا أن نسطر تاريخ فن العمارة أو الحفر عند الرومانيين وجدناه فصلا من فصول تاريخ ذينك الفنين عند الاغريق

انحطت تلك الامة الرومانية العظيمة فى باب الفنون ولكنها رفعت الى السماء راية ثلاثة من عناصر المدنية الاخرى فأجادت نظام الجندية حتى استلمت به قياد العالم بأسره وأحكمت النظامات السياسية والقضائية التى لا نزال نحتذيها حتى الآن وأحدثت فى أدب اتخذناها عنها قرونا طوالا

بذلك نرى اختلاف نمو عناصر المدنية في أمتين لامشاحة فى أنهما بلغتا من الرقى درجة عليا ويتبين لنا وجه الخطأ فى الاقتصار لتقرير حقيقة الحضارة عند الامم على عنصر واحد من تلك العناصر كالفنون وحدها لأنا رأينا عند المصريين فنونا وصلت حد الاعجاز الا النقش وفن أدب فى مستو صغير جداً ورأينا عند الرومانيين فنونا ضئيلة لا شخصية فيها ولكنا عرفنا لها أدبا رائعا ونظاماً سياسياً وعسكرياً من الطراز الاول

ولنا أن نذكر الاغريق وهم من الامم التى تفوقت فى فروع شتى من عناصر المدنية كان فن الادب راقياً جداً فى زمن (هوميروس) بدليل أن أغانيه لا نزال معتبرة كالسلسبيل الذى تشبعت به شبيبة الجامعات الاوروباوية منذ قرون وقد دل

التنقيب عن عمارات الارمان الغابرة على أنها كانت تقرب فى زمن طهور تلك الأغانى من عمارات المتوحشين وأنها عبارة عن خليط مشوّه منقول مما شاد المصريون والاشوريون

وأظهر مايشاهد الفرق فى نمو عناصر المدنيه في الامم الهندية فأما العمارات فقلما وجدت أمة فاقت الهند فيها وأما الفلسفة فقد بلغ بعد نظرهم فيها شأواً لم يبلغه عقل الاوروباوين إلاّ منذ عهد قريب جداً وأما صناعة الأدب فلهم فيها مناطيع ونابغ تعجب الكتاب وان لم يبلغوا فى ذلك الفن مبلغ الاغريق والرومان وكانوا متأخرين فى صناعة التماثيل عن الاغريق بمراحل ثم هم مجردون من العلوم والمعلومات التاريخية وملكة التحقيق مفقودة منهم الى حد لا وجود له عند أمة أخرى فلم تكن علومهم إلا تخيلات صبيانية وما كتبهم فى التاريخ إلا قصص سخيفة ليس فيها تاريخ حادثة واحدة وربما خلت من ذكر واقعة صحيحة ولو اقتصر الباحث على النظر الى الفنون وحدها لما كفى ذلك فى بيان الدرجة التى كانت عليها حضارة هذه الأمة

وهناك أمثلة كثيرة غير ما تقدم للدلالة على منحنا هذا فمن الأمم من لم تبلغ النهاية فى سلم الرقى وكان لها فى الفنون طابع خاص لا نرى فيه نسبة ظاهرة بينه وبين فنون الأمم التى تقدمته ذلك شأن العرب فى أقل من قرن بعد إغارتهم على الأمم الاغريقية

الرومانية القديمة قلدوا صورة العمارات البيزنطية بعد أن جروا على مثالها حتى أصبح من المتعذر معرفة المصدر الذى انتزعوا فنهم منه لولا وجود سلسلة العمارات السابقة

ومن الأمم من ليس لها أدنى مقدرة فنية أو أدبية ولها مع ذلك حضارة راقية كما وقع للفينيقيين الذين لم يعرف لهم تفوق إلا فى التجارة وهم الذين مدنوا الدنيا القديمة بما أوجدوا من الصلات بين جميع أطرافها أما هم فلم ينتجوا شيئاً جديداً وينحصر تاريخهم فى ذكر ما كانت عليه تجارتهم

وهناك أمم اجتمعت لديها جميع عناصر المدنية إلا الفنون كأمة (المغول) فان الآثار الصحيحة التى أقاموها فى الهند يكاد لا يكون عليها شىء من الصبغة الهندية وقد أمست من الرواء حداً جعل المدققين فى هذا الفن يرون بعضها أجمل ما شاهدت يد الإنسان ومع ذلك لا يخطر على بال أحد أن يعد (المغول) فى مصاف الأمم الراقية

على أنا نشاهد عند أرقى الأمم حضارة أن الفنون لم تبلغ النهاية فى رقيها أيام زهو تلك الحضارة فان أعظم مبانى المصريين والهنود هى أقدم ما بنوا وقد تفتحت أكمام الفن المعروف باسم (القوطى) بأوروبا فى القرون الوسطى حيث كانت أمم

العرب في حالة تقرب من الهمجية ولا تزال تلك الآثار عديمة النظير الى يومنا هذا

لذلك يتعذر الحكم على درجة حضارة الأمة بدرجة رقي فنونها دون غيرها لأنها كما سبق لي القول ليست إلا أحد عناصر المدنية ولم يثبت أن هذا العنصر هو أرقى العناصر كما ان ذلك غير ثابت أيضاً لصناعة الأدب بل المشاهد غالبا أن المصنوعات الفنية هي أضعف العناصر عند طلائع الأمم المتحضرة كالرومان في العصور الخالية والأمريكان في هذا الزمان والمشاهد غالباً أيضاً كما قدمنا أن الأمم أنتجت أنفس فنونها وأشهى أدبها وعلى الأخص الأولى منها أيام كانت في شبه البربرية بل يخيل لنا أن دور ازدهار الفنون والأدب في أمة هو دور انشاق طفوليتها أو شبيبتها لا دور تمام نموها وإذا التفتنا الى الدنيا الجديدة التي يلوح لنا فجرها وقد استهوتها المصالح المادية ورأينا شأن الفنون عندها يكون غير محسوس أمكننا أن نخبر عن اليوم الذي تنزل فيه الفنون الى درجة المظاهر الثانوية الدالة على المدنية ان لم تنزل الى الدرجة السفلى

وهنالك أسباب كثيرة تمنع من أن يكون رقي الفنون ملازماً على الدوام لرقي غيره من عناصر المدنية فتكون برهاناً على الحالة التي وصلت اليها المدنية المذكورة إذ المشاهد أنه بمجرد

وصول الفنون الى درجة معينة من الارتقاء أعني متى ظهرت الطرف تأخذ الفنون فى الانحطاط غير تابعة فى ذلك حركة بقية العناصر الاخرى ذلك ناموس عام غير خاص بأمة دون أخرى أثره ظاهر فى مصر واليونان وفى أمم أوروبا على اختلافها ويستمر هذا التطور نحو السقوط الى أن تحدث ثورة سياسية أو غارة أجنبية أو إلى أن تعتنق الامة ديناً جديداً وتعرض حادثة أخرى من الحوادث التي تتكيف الفنون بسببها حصل ذلك فى القرون الوسطى فان الحروب الصليبية جذبت الى أوروبا معارف وأفكاراً جديدة ظهر طابعها فى الفنون حيث انتقلت مستحدثاتها من الطراز الرومانى الى الطراز (القوطي) وبعد ذلك ببضع قرون تجددت نهضة علوم الادب الاغريقية الرومانية وانتقلت الفنون من الطراز (القوطى) الى طراز (النهضة الجديدة) وقس على ذلك تغير طراز الفنون الهندية فى الهند بسبب دخول العرب فى تلك الاقطار

ومما يجب ملاحظته أن الفنون من حيث دلالتها بعض حاجات المدنية وكونها نتيجة بعض المشاعر المخصوصة تتجدد وتتغير بحكم الضرورة وقد تزول بالمرة تبعاً لتغير تلك الحاجات والمشاعر أو زوالها ولا يترتب على ذلك أن تكون الحضارة نفسها فى ذبول وهذا برهان جديد على فقدان التوازن بين الفنون وبين

غيرها من عناصر المدنية ألا ترى أن المدنية لم تبلغ من الرقي ما بلغته في هذا الزمان وان الفنون ما كانت في زمن من الأزمان أكثر تبدلا وشيوعاً وأبعد مشخصاً لأممها منها الآن وسببه تغير المعتقدات الدينية والحاجات والمشاعر التي كانت تحمل الفنون عنواناً على الحضارة أيام كانت هذه منحصرة في داخل القصور والصوامع والبيع فصار البيع أمراً ثانوياً وصناعة زخرف لم يعد امن الحائز أن يفنى فيها الوقت الكثير والمال الوفير ولما لم يعد الفن من الحاجيات أصبح حتما صناعياً وتقليداً على العالب فلا توجد الآن أمة لها فنون ملية خاصه بها وكل أمة تنقل طراز العمارات والحفر نقلا متقناً أو غير محكم عن الأمم التي تقدمتها

نعم لا ننكر أن تلك الصور المنقوله تدل على حاجات أو ميول عند الناقل ولكن من المحقق أنها لا تدل على ما نحن عليه الآن من الافكار والمشاعر انى أنظر الى مصنوعات أهل الفن عندنا في الازمان الوسطى على سذاجتها فأجد أنهم كانوا يرسمون القديسين أو المسيح او الجنة أو النار مما كان له الشأن الاول في ذلك الزمان واليه تتجه أغراض الحياة ثم انظر الى المصورين في هذه الأيام وهم ليسوا من أهل ذلك الاعتقاد يكسون جدران المباني بصور قديمة وشارات ترجع الى زمن طفولية

البشر يحاولون بذلك التذكير بعصر مندثر فاشعر بانهم يحدثون صور صناعية أو صورية لا ترجع الى حقيقة ولا فائدة منها لاهل هذا العصر ولا يعبأ بها أهل العصور القادمة

اما الفن الحقيقي هو الذى يدل دلالة صحيحة على زمنه الخاص حيث يصور الصانع ما يقع تحت حسه أو نظره لا أنه يقتصر عمله على تقليد صور تترجم عن أفكار ومعتقدات لم تعد من أفكارنا ولا معتقداتنا ولا تعتبر الصور صحيحة فى وقتنا هذا إلا اذا مثلت الاشياء التى تحيط بنا وفن العمارة الصحيح الآن هو الذى يمثل لنا الدور ذات الطبقات الخمسة وعيون الانهار وقناطر المياه والسكك الحديدية هذا الفن سماه الممعة وهو الذى ينطبق على أفكارنا وحضارتنا ويمثل كل التمثيل عصرنا كما كانت الكنيسة التى من طراز (القوط) وقصر عهد الشرفاء يمثلان زمناً مخصوصاً وستستوى تلك الدور الشبيهة بقصر التيه وتلك الكنيسة (القوطية) فى نظر مهندسى العصر الآتى لانهما لن تكونا عنده الا صفحتين من الكتب الحجرية التى يتركها كل زمان للذى بعده كما أنه سيلقى فى زوايا الاهمال ما يقلده صناع هذا الزمان

كل طراز يمثل خيال أهل زمانه ولما كانت الازمان متغيرة وكذا الشعوب على الدوام فمن المسلم أن الخيال يتغير بتغيرها وتستوى الخيالات كلها فى نظر الفلسفة لانها ليست الا علامات وقتية

وعليه فالفنون مظهر من مظاهر الأمة التي أوحت بها لا فرق بينها وبين غيرها من عناصر المدنية ولكنا لا نرى فيها الميزان المدل لافكار جميع الامم على السواء

كان هذا التقرير لازماً في موضوعنا لان أهمية أحد عناصر الحضارة عند الامة هي مقياس قدرة تلك الامم على تغيير ذلك العنصر اذا نقلته اليها من أمة أخرى فاذا كانت ذا باع طويل في الفنون كان لابد لكل من نقلته اليها من الانطباع بطابعها الخاص ولكنها لاتؤثر الا يسيراً في العناصر التي لاتمثل ماكنتها فلما نقل الرومان طراز عمارات الاغريق لم يحدثوا تغييراً كبيراً لان روح الامة الرومانية ماكانت لتظهر في الفنون بل كان اهتمامهم الاكبر بغيرها من عناصر المدنية

ومع ذلك فانه بعد قرون قليلة يتأثر الفن بعامل البيئة حتى يدل بالقهر عنه على روح الامة ولو كانت كالامة الرومانية ليس لها فن خاص وكانت محتاجة فيه إلى جلب عامديها وصناعها من أمة أخرى كذلك نرى معابد روما القديمة وقصورها وأقواس نصرها ونقوشها البارزة مصنوعة بيد الاغريق أو تلامذة هؤلاء ولكن مسحة هذه الآثار والاغراض التي أقيمت من أجلها وزخرفها وحتى مساحاتها لاتذكر الناظر اليها بخيال آتينا اللطيف بل هي تمثل القوة والسيطرة والمنعة الحربية التي كانت تقيم روما وتقعدها

ومن هنا يتبين أنه مهما كانت المادة التي استعملتها الامة خارجة في الاصل عن شخصيتها لابد من أن تترك فيها أثراً دائماً لها يرشدنا إلى شيء من مراحها العقلي وفكرها النفساني

وعلة ذلك أن للصانع الحميق سواء كان معمارياً أو أديباً أو شاعراً ملكة سحرية يمثل بها في أعماله روح زمانه وأمته فالصناع شديدو الانفعالات مشاعرهم الهامية يتعقلون بالصور ولا يبحثون إلا قليلا فهم بذلك في بعض الازمنة مرآة الحميات التي يعيشون فيها ومحدثاتهم أصدق شاهد يمكن الاستشهاد به في مدنية أمتهم والخطأ بعيد عليهم لانهم يحدثون عما شاهدوا كالسعاة وهم شديدو التأثر بما يحيط بهم من المحسوسات فلا يضلون في التعبير عن أفكار تلك المدنية ومشاعرها وحاجاتها واتجاهاتها أما الحرية فلا يعرفونها وهذا هو السر في قدرتهم سجنوا عقيدتهم في دائرة من التقاليد والافكار والمعتقدات التي تكون روح الامة ومشاعرها الموروثة وكذا الافكار والالهامات وكان ذلك شديد التأثير فيهم لانه هو الحاكم على منابع الافعال اللاشعورية حيث تختمر المحدثات التي يوجدونها ولو أننا فقدنا هذه المصنوعات ولم يكن لدينا ما نعرف به العصور الماضية إلا القصص المستهجنة والتلفيقات المخترعة في الكتب التاريخية لاستبهم علينا ماضي الامم كما عاشت عنا حقيقة (اطلانطيد) التي غمرتها الامواج كما ورد

حبرها عن أولاطون

والخلاصة أن مزية الفن الصحيح هى التعبير الصحيح عن حاجات الزمن الذى ولد فيه وأفصح الالسن على اختلافها لسان محدثات الفنون وأحصها العمارات فهى أصدق أنباء من الكتب وأقل تصنعا من الديانات واللغات لانها بنت الحاجات والمشاعر معا والمعمارى هو مشيد بيت الانسان وبيت أربابه وفى المعابد وفى قلب العائلات اختمرت الاسباب الاولى التى كونت تاريخ البشر

يستنتج من كل ما تقدم أن جميع عناصر الحضارة وهى مظهر روح الامة التى أحدثتها وأن بعض هذه العناصر مما يتغير بتغير الامم وفى الامة الواحدة وعلى حسب الازمان المختلفة أصدق فى الدلالة على تلك الروح من البعض الآخر

ولما كانت هذه العناصر متغيرة بحسب الامم والازمان فمن الواضح أنه لا يمكن اتخاذ واحد منها كمقياس عام لحضارة الجميع كما أنه يستحيل أيضاً أن يرتب هذه العناصر بعضها فوق بعض لان هذا الترتيب عرضة للتغيير قرنا بعد قرن تبعاً لتغير أهمية العناصر نفسها بحسب الازمان كما تقدم

وإذا حكمنا على عناصر المدنية من جهة الفائدة وحدها قلنا أن أهمها التى تتمكن بها الامة من استخدام من عداها أعنى النظامات العسكرية وحينئذ يجب أن نضع الاغريق أهل الفنون والفلسفة

والادب دون إخلاط الرومانيين وحكماء المصريين وعلماءهم دون الفرس القريسيين من الوحشية والهنديين دون المغول الذين يشبهون الفرس

والتاريخ لايشتغل بهذه التقاسيم الدقيقة وأعظم شيء له المقام الاول عنده هو التفوق الحربي ولكن قلما يكون ذلك مقترناً بالتفوق فى عناصر المدنية الاخرى وعلى كل حال فان الاول لا يبقى على الثانى طويلا لأن الافضلية الحربية لا تبدأ مع الاسف فى الانحطاط لدى أمة إلا ويكون محكوماً على هذه الامة بالسقوط وما زالت الدول الراقية الا أيام بلوغها ذروة المجد وأوج الحضارة فأحلت المكان الى البرابرة الذين هم أدنى منها بمراحل من حيث العقل الا أنهم كانوا على شيء من قوة الخلق والمناعة الحربية وهما صفتان تنعدمان دائماً بكثرة الترفه فى الحضارة

وعليه لا بد لنا من التسليم والحزن فى قلوبنا بأن العناصر المنحطة في نظر الحكماء هى أهم العناصر من الجهة الاجتماعية وإذا كانت نواميس العصر الآتى هى التى عرفناها عن العصر الحالى قلنا أن أشد الاحوال خطراً على الامة وصولها إلى أعلى درجات الرقى فى العقل والتهذيب فالامم تموت متى ضعفت صفات خلقها التى هى نسيج روحها وضعف هذه الصفات يكون على قدر حظ الامة من الحضارة والذكاء

الفصل الثانى

كيف تتغير النظامات والديانات واللغات

ليس فى استطاعة الأمم راقية ودنيا ان تغير فجأة عناصر مدنيتها — معارضة ذلك بالأمم التى غيرت ديانتها ولغتها وفنونها — مثال اليابان — فى ان هذا التغير صورى — التغير الكلى فى البوذية ومذهب البراهمة والاسلام والنصرانية بحسب الشعوب التى دانت بها — التغير الذى يحدث فى النظامات واللغات بحسب الأمم التى تدخل عليها — فى أن الالفاظ المقابلة فى اللغات المختلفة تعبر عن معان ومشاعر متفاوتة — استحالة ترجمة بعض اللغات الى بعض من اجل ذلك — السبب فى ان مدنية بعض الأمم تظهر فى كتب التاريخ متأثرة بتغير كبير — حد تأثير الحضارات بعضها فى بعض

بينا فى غير هـذا المكان كيف ان الأمم الراقية لا تستطيع أن تخضع الأمم التى هى أدنى الى حضارتها وأثبتنا أن أكثر العوامل التى تستخدمها أوروبا فى ذلك الغرض من تربية ونظامات ومعتقدات غير كافية بالمرة لاحداث هـذا الانقلاب وحاولنا ايضاح ان جميع عناصر المدنية صادرة عن مزاج عقلى خاص يتكون بالوراثة مدى الزمن الطويل وأن من المستحيل تغيرها الا بتغير ذلك المزاج وأن هذا من صنع العصور لا من عمل الفاتحين وانه

لابد من قطع مراحل متتالية حتى تنتقل الأمة من درجة الانحطاط الى درجات الرقى كما كان ذلك حال الأمم المتبربرة التى حطمت الحضارة الاغريقية الرومانية ومن يحاول أن يتخطى بالأمة تلك المراحل من باب التربية فانما يعمل على تخريب آدابها وتشويش قواها العاقلة والسقوط بها الى مستوى أحط من الذى كانت بلغته من ذاتها قبل ذلك

والاستدلال الذى استعملناه فى جانب الأمم المنحطة يصدق أيضاً فى جانب الأمم الراقية فاذا صحت النظريات التى شرحناها فى هذا الكتاب صح أن الأمم الراقية لاتستطيع أن تغير حضارتها دفعة واحدة بل يلزمها أيضاً أن تنتقل فى ذلك مرحلة بعد أخرى وأن تقطع أدوار التحول دوراً دوراً وقد يظهر أن أمما راقية تركت ديناً بدين وبدلت نظاماً بنظام واختارت لغة دون لغة وفنوناً جديدة غير ما كان لآبائها من ذلك ولكنها فى الواقع لم تصل الى هذا الانقلاب الا بعد أن تكون حورت ماأخذته تحويراً كلياً على مهل وصقلته حتى جعلته موافقاً لمزاجها العقلى

والظاهر أن التاريخ يناقض هذه النظرية فى كل صفحة من صفحاته فكم نرى فيه أمما غيرت عناصر مدنيتها واتخذت لها ديناً ونظامات ولغة غير التى كانت لها فمنها من تركت دين آبائها الاولين واعتنقت المسيحية أو البوذية أو الاسلام ومنها من حورت لغتها

تحويراً كلياً ومنها من قلبت نظاماتها وفنونها رأساً على عقب ويلوح أنه يكفى قيام بطل من الفاتحين أو المرسلين أو أن يأخذ الأمة شيء من الهوس ليحدث مثل ماتقدم من الانقلاب

غير أن التاريخ بروايته هذه الانقلابات لم يخرج عن القيام بعض وظائفه أعنى خلق الخطأ وتأييده لكن اذا دققنا النظر فى هذه التغييرات المدعاة رأينا أن الذى تغير فى الواقع انما هى أسماء الأشياء أما المسميات المختبئة تحت الأنماط حية ترزق وهى لا تتغير الا ببطء عظيم

وحتى نبين ذلك ونوضح أيضاً أن التغيير يختمر رويداً رويداً من وراء هذه التسميات ينبغى أن نستقرىء عناصر كل حضارة بذاتها فى أمم مختلفة أعنى اننا نحدد وضع تاريخها وقد حاولت هذا العمل الشاق فى أجزاء عدة فلا ينبغى ان أعود اليه هنا ولذلك أجتزىء عن جميع العناصر بواحد منها وهو الفنون

سأفرد لبيان التغيرات التى تطرأ على الفنون فصلاً خاصاً وأريد قبل ذلك أن آتى هنا على طرف من التغيرات التى تلحق بقية العناصر لأبين ان النظرية التى تصدق على أحدها تصدق أيضاً على البقية وأنه كما أن فنون كل أمة تناسب مراحلها العقلى فالنسبة أيضاً موجودة بين ذلك المراحل وبين اللغة والنظامات

والمعتقدات وهكذا وانه بناء على ذلك يتعذر تغييرها دفعة واحدة وانتقالها من أمة الى أخرى (١)

ولقد يذهب الظن الى أن هذه النظرية مناقضة لما يشاهد في الديانات لكن الواقع أن تاريخ المعتقدات هو الذي نجد فيه الأمثلة القاطعة على صحة نظريتنا والحجة الدامغة على أنه يستحيل على الأمة أن تغير عناصر مدنيتها جملة كما تستحيل كذلك على الانسان أن يبدل من قامته أو لونه

ليس من ينكر أن الديانات الكبرى كالبرهمية والبوذية والنصرانية والاسلام دخلت دفعة واحدة في شعوب تحملتها فبدلتها بدينها الأصلي حتى خيل أنها استبدلتها فجأة عما وجدت عليه آباءها وبالتأمل في ذلك يتبين أن الذي استبدلته الأمم على

---

(١) لم أذكر هنا مثال اليابان فقد كتبت عنه قبل الآن ولم أعد اليه في وقت آخر اذ قدر أن تعمم بعض الصحائف فتستفيض القول على مسألة طالما حكم علماء السياسيين فيها وتبعهم في خطأهم مع الأسف بعض صغار النظر من الفلاسفة لأن نمو الاستعمارات الحربية ولو على همج متوحشين لا يزال عند بعض الأفهام دليلا على مقدار مدنية العالم مع أنه من السهل تدريب جماعة من الزنوج على النظام الحربي الاوروبي وتعليمهم كيف يستخدمون المدافع والمكاحل ولكن ذلك لا يغير من انحطاطهم العقلي ولا ينتج ذلك من المستلزمات وطلاء المدنية الاوروبية الذي يغشي اليابان في هذا العصر لا مفرغ له من مراحلها العقلي بحال ولكنه لباس حقير مستعار ستمزقه الثورات عما قريب

الا حص اىما هو اسم ديىها القديم لا الدين نفسه والدين الحديد هو الدى تميز حتى يتفق مع المعتقد القديم فلم يكن الحديد فى الحقيقة الا امتداد ذلك القدم

بل أن التغير الذى لحق بالأديان التى انتقلت من أمة الى أحري وصل الى درجة لم يبق معها من الدين المعتنق حديثاً الا اسمه وصورته واوضح مثال نجده فى البوذية فانها منذ انتقلت الى الصين ضاعت معالمها حتى ظنها العلماء في أول الأمر ديناً مستقلا ولبثوا زمناً طويلا حتى اهتدوا الى أنها البوذية حورتها الأمة التى اعتنقتها وليست البوذية الصينية هى البوذية الهندية أبداً وهذه تخالف كل المخالفة بوذية (نيبال) وهذه أيضاً تبعد عن بوذية سيلان (سرنديب) فهى فى الهند مذهب من البرهمية التى سبقتها ولا تختلف عنها فى حقيقتها الا يسيراً وهى فى الصين أحد المذاهب التى كانت سائدة فى تلك البلاد وبين الاثنين رابطة قوية

وحال البرهمية حال البوذية سواء بسواء فأهل الهند قبائل شتى وكان لامندوحة من اختلاف شيعهم فى المعتقدات وان اتحد الدين عند الجميع فجميع الذين يدينون بالبرهمية يعتقدون أن أهم آلهتهم (فيشنو) و (سيفا) وأن الكتاب المقدس هو (فيدا) غير أن هذين الالهين لم يتركا الا اسميها كما أنه لم يبق من الكتاب المقدس الا رسمه وقام بجانب الكل مذاهب لاتحصى عددها

تشعبت فيها المعتقدات تشعب القبائل والطوائف فهناك مذاهب التوحيد وتعدد الآلهة وعبادة الحيوان والجماد ومجموع الكائنات وعباد الأجداد والشياطين وهكذا ولو رجعنا في معرفة الديانة الهندية الى ماهو مسطور فى (الفيدا) لما وقفنا على طرف يسير جداً من الآلهة والمعتقدات السائدة في تلك الأقطار المترامية الأطراف فاسم الكتاب المقدس محترم عند جميع البراهمة أما الدين الذى جاء به هذا الكتاب فلم يبق على وجه العموم شيء منه

وما شذ الاسلام نفسه عن هذه القاعدة على بساطة مذهب التوحيد الذى جاء به فالفرق كبير بينه فى الفرس وبلاد العرب والهند ألا ترى ان تمكن عقيدة تعدد الآلهة عند الهنود سهل عليهم من جعل أكثر الديانات تشدداً فى الوحدانية شاملة لآلهة كثيرة فهنالك خمسون مليونا من الهنود يرون أن محمداً والأولياء ليسوا الا آلهة أضافوهم الى ألف آله مما كانوا يعبدون حتى أن الاسلام لم يتمكن من ايجاد المساواة بين جميع المسلمين فى الهند مع أن المساواة كانت سبباً قويا فى انتشاره فلا تزال الطوائف موجودة عندهم كما هى عند اخوانهم غير المسلمين وفى بلاد الدكن وعند قبائل (دراقان) تغير الدين حتى أصبح لا يعرف أنه الاسلام ولا يكاد يفرق بينه وبين البرهمية بل أنه لا يفترق عنها الا باسم

محمد وبالجامع ولكنهم ألهوا الرسول وعبدوه

على أنه لاداعي للرحيل الى الهند لنرى مادخل على الاسلام من التحوير الكلي بانتقاله من أمة الى أخرى بل يكفي التأمل في مسلمي الجزائر هناك شعبان مختلفان العرب والبرابرة والاثنان مسلمان وفرق بين اسلام هؤلاء واسلام هؤلاء البرابرة لايعتقدون الا بروحة واحدة ولا يعترفون بتعددالروحات الواردة في القرآن واسلامهم مشوه جداً بعبادة الأوثان التى ألفوها منذ العصور الخاليه أيام سيادة قرطاجة

كذلك لم تنج الديانات في أوروبا من التحوير بحسب اختلاف الأمم التى اعتنقتها فمنها من حافظوا على لفظ القواعد التىوردت في الكتب ولكنها صيغ ذهبت كل أمة في تفسيرها مذهبا يخالف مذهب غيرها فبين الأوروبيين الذين يتسمون بالنصارى من هو وثني صرف كسكان بريتانيا السفلى الذين يعبدون الاصنام وكالأسبانيين الذين يعبدون آلهة من المخلوقات وكالتليانيين الذين يؤلهون تماثيل العذراء في القرى واذا تعمقنا في البحث وجدنا مذهب البروتستانت آت من اختلاف أمتين متغايرتين في تفسير كتاب واحد أمم الشمال التى مالت الى البحث في معتقدها نفسها وتقرير أمور حياتها وأمم الجنوب الباقية على حالة من التأخر في الاستقلال والنظر الفلسفي وهذا أوضح مثال في بحثنا

نمد بنا الشقة اذا أردنا شرح هـذه المشاهدات ومع ذلك فانا نمر مروراً على عنصرين آخرين من عناصر المدنية وهما النظامات واللغات لكيلا نضطر إلى الدخول في تقريرات اصطلاحيـة تخرج عن دائرة هذا الكتاب

ماصح في جانب الديانات صحيح في جانب النظامات نعنى أن هذه أيضاً تتحور اذا انتقلت من أمة إلى أخرى وانى لا أطيل القول وأكتفي بالفات القارىء ليرى نفسه فى زمننا هذا كم تغير النظام الواحـد بحسب الأمم التى أقرته مع اتحاد اسمه فيها كلها سواء كان اقراره بالقوة القاهرة أو من طريق الاقناع وسأشرح ذلك في فصل آخر عند الكلام على أقاليم أمريكا

النظامات ثمرة الحاجات ومما لاشبهة فيـه أن ارادة جيل واحد لايمكن أن تؤثر فيها فلكل أمة ولكل دور من أدوار تطور هـذه الأمة أحوال خاصة في كينونتها ومشاعر وأفكار وآثار موروثة وهـذا كله يستلزم نظامات خاصة ولا يحتمـل غيرها واسم الحكومة لا دخل له فى ذلك وما من أمة استطاعت أن تقرر عندها من النظامات أحسنها بحسب ما ظهر لها ولو أنها أقرتها اتفاقاً وهو مالايقع الا نادراً جداً فانها لا تقدر على استبقائها ولقد كانت الانقلابات والتغيرات النظامية التى تمر علينا منذ قرن كافية لاقناع رجال السياسـة عندنا بهذه الحقيقة

بل انى أظن انه لم يعد أحد يرى أن التغييرات الاجتماعية الهامة يسهل احداثها بمجرد إصدار الأوامر العالية بها اللهم الا ذوى العقول المعوجة من العامة والا نفراً من قصار النظر المتعصبين والحقيقة أنه لاشأن للنظامات ولا فائدة منها الا من جهة كونها تقرر التحول الذى حصل فى الأخلاق وانقدح فى الأفكار فهى تابعة له لامتقدمة عليه وليست النظامات هى التى تغير من أخلاق الناس وأفكارهم وليست هى التى تجعل أمة متدينة أو قليلة الايمان ولا هى التى تعلم الناس حكم أنفسهم بأنفسهم أو تجعلهم يطلبون على الدوام من الحكومة أن تضع فى أعناقهم سلاسل واغلالاً

وكما أجملت القول فى النظامات أجمله فى اللغات فأكتفى بالاشارة إلى أن اللغة تتغير وان كانت مقررة بالكتابة متى انتقلت من أمة إلى أخرى وهذا هو الذى يجعل فكرة ايجاد لغة واحدة لجميع الأمم عملا صبيانياً نعم أحدثت أمة (الغول) بعد قرنين من فتوح الرومان اللغة اللاتينية ولكنها حوّرتها سريعاً بحسب حاجاتها وصبغتها بصبغة معقولها وما زالت بها حتى أخرجت منها اللغة الفرنساوية الحاضرة

يستحيل على شعوب مختلفة أن تستمر على لغة واحدة زمناً طويلاً وقد تضطر الامة بعامل الفتوحات أو ضرورة التجارة

أن تستعمل لغة غير لغتها الاصلية الا انه لا يمر على ذلك بضعة أجيال حتى تتغير اللغة الجديدة تغيراً كبيراً ويكون التغيير أكبر على قدر الخلاف بين الأمة الناقلة وبين الأمة المنقول عنها

ومن المحقق أننا نجد على الدوام لغات مختلفة عند الأمم المختلفة ومن أول الامثلة على ذلك بلاد الهند لشعوبها شتى ولا عجب بعد ذلك اذا رأينا العلماء يعدون لها مائتين وأربعين لسانا والفرق بين بعض هذه اللغات وبين البعض الآخر أكبر من الفرق بين اللغة الافريقية وبين اللغة الفرنساوية وهناك أيضا نحو ثلاثمائة لهجة وأهم تلك اللغات أحدثها وهي الهندستانية لأن عمرها لا يزيد على ثلاثمائة سنة وهي مزيج من اللغتين الفارسية والعربية اللتين كان يتكلم بهما الفاتحون ومن الهندية التي كانت أكثر اللغات انتشاراً في الأقاليم التي دخلوها وقد نسي الغالب والمغلوب في زمن يسير لغتهما الأولى واتخذا اللغة الجديدة لساناً عاماً موافقاً للشعب الجديد الذي تولد من اختلاط الفريقين كما تقدم

ولهذا أكتفي هنا ببيان المسائل الأساسية وأقول اذا اختلفت الأمم اختلفت معاني الألفاظ وان كانت متماثلة ترى أنه لا ترادف فيها وتعذرت ترجمة احدى اللغتين إلى الأخرى يفهم ذلك مما هو مشاهد عند الأمة بذاتها في اللغة الواحدة فالكلمة

يكون لها معنى فى زمن وبعد بضع قرون يصبح لها معنى آخر والمعنى القديم هو الذى كان يجول بخاطر رجال العصر القديم ثم تغيرت مدلولات الالفاظ بتغير الافكار والاخلاق والعادات وبقى الكلام حاصلاً بواسطة هذه الألفاظ البالية لتعسر استبدالها ولكنه لم يعد من نسبة بين ما كانت تدل عليه وما صارت تدل عليه وإذا نظرنا إلى الأمم البعيدة جداً ممن عرفت عنها حضارة لا نسبة بينها وبين حضارتنا شعرنا بأن ترجمة لغتهم إلى لغتنا لا ينتج الا ألفاظاً مجردة عن معانيها الأولى أى أنها لا تنقل إلى أذهاننا الا صوراً مخالفة كل المخالفة للتى كانت ترسمها فى أذهان القوم السابقين وهذه النظرية أظهر ما تكون في بلاد الهند فان الألفاظ عندهم لم تتقرر بطريقة ثابتة كما حصل ذلك عندنا وذلك بتقلب الأمم الهندية فى أفكارها ولأنه لا قرابة بين معقولها ومعقولنا ولهم كتب مثل (الفيدا) يستحيل أن نترجمها وقد خابت مساع كثيرة فى هذا السبيل[1]

ان من الصعب أن تدرك غور أفكار من نعيش معهم اذا

---

(١) ذكر احد المتضلعين فى العلوم الهندية وهو موسيو (بارت) محاولات ترجمة (الفيدا) ثم قال ويستخلص من هذه الابحاث العديدة وكثيراً ما ناقضت نتائجها امر واحد هو قصورنا عن ترجمة هذه الكتب اذا اردنا بالترجمة معناها الصحيح

افترقوا عنا بالعمر والجنس والتربية وأعز من ذلك منالا ادراك أفكار أمة تقادم عهدها مهما بلغ منا العلم بل كلما استزدنا علماً زادنا اقتناعاً بعدم فائدة محاولة الوصول إلى هذه الغاية

هذه الأمثلة على اختصارها كافية فى بيان أهمية التغييرات التى تحدثها الأمم في عناصر المدنية المأخوذة عن غيرها وقد يخيل أن التغيير عظيم لأن الأسماء تتبدل لساعتها ولكنه فى الحقيقة شىء يسير ولا بد من تقلب الأجيال وتراكم أثر الوراثة حتى يظهر بوضوح تام أن العنصر المنقول يخالف العنصر الذى حل محله وليس لهذه التغييرات مأخذ في التاريخ لانه لا يهتم فيه الا بالاشياء الظاهرة واذا قرأنا فيه أن أمة اعتنقت ديناً غير دينها الاصلى فالذى نفهمه من ذلك هو الدين على ما نعرفه منه حين نظرنا فيه لا تلك المعتقدات التى انتحلتها تلك الأمة فى الواقع ونفس الأمر ويجب لمن يريد التفريق بين الالفاظ والحقائق الواقعة أن يطيل النظر فى تلك التغييرات حتى يقف على كيفية سيرها ومقدار نموها

وعلى ذلك نقول أن تاريخ المدنيات يتألف من هذه الادوار المتجددة شيئاً فشيئاً واذا خيل لنا أنها فجائية وهامة فذلك لأننا نقطع النظر عن التقلبات المتوسطة بين المبدأ والنهاية ولاننا لا ننظر الا إلى هذه الاخيرة

وحقيقة الأمر أن قدرة الأمة على تمثل عناصر المدنيا محدودة حداً مهما بلغت من قوة العقل وعلو الملكات فان حلاء الدهن لاتتمثل فى يوم ما لم يتكون الا فى عدة قرون وما لايلائم الا أمرحة تختلف عنها مشاعر وأحلاقاً ولا يتأتى تمثل هـده الموروثات الا نصم مثلها على مهل وسنرى عندالكلام على تطور الفنون فى أذكى أمة وهى أمة الاعريق فى الزمن القديم أنها قطعت أدهاراً حتى حرجت عن نقل مصنوعات الأشوريين والمصريين نقلا ممسوخاً ووصلت بالتدريج البطيء إلى تحفها التى لايزال الناس يعجبون بصنعها

ما كان لجميع الأمم التى تعاقبت فيالتاريخ ماعدا بعض القديمة حداً كالمصريين والكلدانيين الا أن تتمثل في العالم عناصر المدنية التى سبقتها بعد أن تكون كل واحدة قد أدخلت عليهامن التغيير مايلائم مزاجها العقلى ولولا ذلك لكان تقدم الحضارة بطيئاً حداً ولوجب أن تبتدىء كل أمة تاريخها على استقلال اذا لم تستمد من التى سبقتها ألا ترى أن الحضارة التى أوجدها المصريون أو الكلدانيون منذ سبعة آلاف أو ثمانية آلاف سنة كانت موارد استقت منها الأمم التالية واحدة بعد أخرى فالفنون الاغريقية تولدت من الفنون التى نشأت على ضفاف نهر الدجلة أو نهر النيل ومن الطراز الاغريقى تولد الطراز الرومانى

وتأثر هذا بالمؤثرات الشرقية فكان منه الطراز البيزنطي وطراز رومانيا والقوطي على التعاقب وكلها مختلفات بحسب روح الأمم التي تولدت فيها وان كانت راجعة الى أصل واحد

وما قلناه في الفنون يصدق على بقية عناصر المدنية من نظامات ولغات ومعتقدات فاللغات الأوروباوية مشتقة من لغة كانت مستعملة في العصر الخالي في سهول آسيا وعلم حقوقنا ابن علم حقوق الرومان وهذا مقتبس مما تقدمه والديانة الموسوية مشتقة مباشرة من ديانة الكلدان ثم اختلطت بمعتقدات الآريين فأصبحت ذلك الدين الذي تدين به أوروبا منذ ألفي سنة على التقريب كذلك علومنا ما كانت تصل الى شأنها الحاضر لولا ما فعلته الدهور الخالية فيها فعظماء واضعي علم الفلك الحاضر مثل (كوبرنيك) و (كبلر) و (نيوتن) يتصلون بطليموس صاحب الكتب التي تداولت في تعليم هذا العلم الى القرن الخامس عشر ويتصل بطليموس من طريق مدرسة الاسكندرية بالمصريين والكلدان هكذا ينهض من خلال ذلك النقص الفادح الذي نراه في تاريخ حضارة الأمم تطور بطيء في معارفنا نرجع فيه بين العصور الماضية والأمم الخالية حتى نصل الى فجر الحضارات الأولى والعلماء يحاولون الآن الرجوع بذلك أيضاً الى الزمان الذي لا تاريخ للانسان فيه ومع أن الأصل واحد فما أكثر التعبيرات التي

أدخلها عليه الأمم نهوضاً وتأخراً طبقاً لمراحلها العقلى وتاريخ الحضارة ليس الا تاريخ هذه التقلبات

ومما تقدم يتضح أن العناصر الأولية التى تتكون منها مدنية أمة من الأمم خاصة بتلك الأمة وأنها خلاصة معقولها وانها لاتحتمل الانتقال منها الى غيرها بدون تحوير كبير وأن الذى يحجب هذا التحوير هى الضرورات اللغوية التى تحملنا نعبر بألفاظ متساوية عن معان مختلفة ثم الضرورات التاريخية التى تجعل القارىء لايرى من الحضارة الا دوريها الابتدائى والذى انتهت اليه دون الادوار التى تجمع بينهما وسنبين بأجلى وضوح فى الفصل الآتى المختص بتطورات الفنون كيف يتعاقب التحوير على أهم عناصر المدنية بانتقالها من أمة الى أخرى



الفصل الثالث

كيف تتغير الفنون

تطبيق النظريات المتقدمة على تطور الفنون عند الأمم الشرقية — مصر — الأفكار الدينية التي ترجع اليها فنونها — ما صارت اليه هذه الفنون بانتقالها إلى امم أخرى مختلفة عن المصريين كالاندوسين والاغريق والفرس — انحطاط الفن الاغريقي في عصره الأول — بطء تطوره — انتقال الفن الاغريقي إلى الفرس وتطوره عندهم وكذا فنون الأشوريين والمصريين — في ان تغير الفنون راجع إلى الأمة ذاتها لا إلى المعتقد الديني — التمثيل لذلك بالتغيرات الكلية التي طرأت على الفنون العربية بحسب اختلاف الأمم التي دانت بالاسلام — تطبيق هذه النظريات في البحث عن اصول فنون الهند وتقلباتها — في ان الهند والاغريق اقتبسا من مصدر واحد ولكن اختلاف الأمة جعل لكل منهما فناً لا نسبة بينه وبين فن الأخرى — تبدلات الفنون الكلية التي حصلت في الهند باختلاف الشعوب التي تغلبت على تلك البلاد رغم اتحاد المعتقدات الدينية

أوجزت القول في بيان النسبة بين مزاج الأمة العقلي وبين نظاماتها ومعتقداتها ولغتها والا لزم لشرح ذلك شرحا وافيا مؤلفات جمة

غير أن الشرح الوافي في الفنون أسهل بكثير أما النظامات أو الدين فمقولة بالتشكيك وقابلة لتأويلات غامضة والباحث فيها

مضطر الى تامس الوقائع المحتلمة اختلاف الازمان والمستورة فى طيات كتب دهبت روحها والى الاشتعال بالتدليل والنقد والتمييز هو لا يصل بعد دلك الا الى نتائج عير مجمع عليها وأما المصنوعات الفنية وأخصها المبانى الأثرية فانها محدودة حداً كاملا وتفسيرها سهل للغاية فكتب الحجارة أحلى الكتب وضوحاً وهى التى لا تكذب أبداً وهذا هو السبب فى أنى جعلت لها شأنا هاما فيما كتبت عن الحضارة الشرقية ولقد كنت على الدوام فى أشد الحذر من الكتب الأدبية فانها تضل عالماً ولا تفيد الا قليلا وأما الآثار فقلما تضل من يستهدى بها وهى تفيد دائما وهى أصدق حفيظ على فكر الأمم التى بادت وإنى لأشكو من أولئك الاخصاصيين الدين عميت عقولهم فلا يبحثون فيها الا على النقوش فلنبحث الآن فى كون الفنون عنوان مراح الأمة العقلى وكيف أنها تتغير بالانتقال من حضارة الى أخرى

وسأحصر بحثى على الفنون الشرقية لأن الفنون الاوروبية وان كانت لا تخرج عن النظريات ذاتها كما بيناه الا أن بيان تطورها عند الأمم المختلفة يقتضى توسعاً لا يحتمله هذا الكتاب الصغير

وابتدأ بفنون مصر لنعلم كيف تغيرت بانتقالها الى ثلاث أمم على التتابع وهى زنوج (ايتيوبيا) و (الاعريق) و (الفرس)

ليس من بين الحضارات التي أزهرت في المسكونة كلها ما يتم التدليل عليه بالفنون كحضارة المصريين فانها ظهرت بوضوح وجلاء جعلاها خاصة بضفاف النيل بحيث تستعصي على الانتقال الى أمة أخرى من دون أن تتغير تغيراً كلياً

خرجت الفنون المصرية وأخصها الأبنية عن خيال خاص وضعته الأمة نصب أعينها مدى خمسين قرناً كاملة فقد كانت مصر تحاول أن تجعل للانسان مقاماً خالداً بدل حياته الفانية فخالفت من عداها واحتقرت الحياة وحفظت ود الوفاة ولم تهتم لشيء اهتمامها بالموميا الصامتة الشاخصة مدى الدهر من ظلمات مقرها الى ذلك النقش الهيروغليفي بعينين مموهتين بالميناء وسط وجه ذهبي فكأنها ترنو في قبرها الفسيح وهي فيه كالقصر المشيد آمنة من عبث الزمان الى كل ما جنت اليه أيام الحياة مما نقش على جدران السراديب التي لا نهاية لها فالعمارات المصرية هي أولا وبالذات مباني أحزان ودين الغرض منها أن تكون مقاماً للموميات والآلهة لأجل ذلك نقبت السراديب ورفعت المسلات ونصبت العمد وشيدت الاهرام ومن أجل ذلك استوت تماثيل أبي الهول على عروشها الصخرية تعلوها سماء السماحة والجلال وكل شيء في هذه العمارات ضخم مكين ذلك لأنها كانت تشاد لتبقى ولو أن المصريين كانوا الأمة الوحيدة

الى عرفناها من التاريخ القديم اقلنا أن الفنون أصدق مصدر لروح الأمة التى أوجدتها

ثم جاءت أمم مختلفة منها المنحطة كالاثيوبيين ومنها الراقية كالاغريق والفرس واشتغلت عن المصريين وحدهم أو عنهم وعن الأشوريين فنونهم فما الذى طرأ على هذه الفنون بين تلك الأمم ؟ اليك ما كان شأنها فى أحط تلك الأمم أعنى فى ايتيوبيا

من المعلوم أن الأمم السودانية انتهزت فرصة قيام الفوضى وحلول زمن الانحطاط فى مصر بعد أن خطت شوطاً طويلا فى تاريخها أعنى أيام العائلة الرابعة والعشرين فاستولى السودانيون على بعض ولاياتها وأقاموا مملكة كانت عاصمتها أولا مدينة (ناتة) ثم انتقلت إلى مدينة (مروى) ودامت على استقلالها بضع قرون وقد بهرتها حضارة المغلوب فأخذت تنقل آثارها وفنونها وبين أيدينا بعض ما أنتجته هذا التقليد ولكنه تقليد فطرى ممسوخ فى العالب لأن أولئك الزنوج كانوا برابرة محكوما عليهم بقصى انحطاطهم العقلى بالبقاء في الهمجية وهم فى الواقع لم يخرجوا منها رغم حضارة المصريين الى دامت تعمل فيهم قرونا عدة ولا يوجد فى التاريخ القديم ولا الحديث ما يدل على أن أمة من

الروح ارتقت فى الحضارة إلى درجتها وما وقعت بحكم الاتفاق حضارة راقية في يد أمة زنجية الا أسرع اليها الانحلال وسقطت إلى درجة تعيسة من الانحطاط كذا كان شأن الحضارة عند الايتيوبيين فى الزمن القديم وكذا شأنها لدى أمة (الهايتى) فى العصر الحاضر

ثم جاءت أمة أخرى ولكنها بيضاء تقيم فى عرض آخر وهى أمة الاغريق ونقلت عن مصر وأشور نماذج فنها الاولى فى مبدإ الأمر وكان نقلها نقلا ممسوخاً وكانت تلك النماذج تأتيها على يد الفينيقيين الذين كانت لهم طرق المواصلات البحرية الجامعة بين الشواطىء وعلى يد أمم آسيا الصغرى أصحاب السيادة على الطرق البرية بين نينوى وبابل

نعم ليس من ينكر أن الأمر انتهى باليونان فتفوقوا على أساتذتهم ولكن أبحاث الأثريين فى عصرنا هـذا دلت دلالة واضحة على شدة قصورهم فى مجهوداتهم الأولى وأنه مرت بهم قرون حتى وصلوا إلى ابراز تحف الفنون التى خلدت ذكرهم إلى الأبد وأن وصولهم إلى هذه الغاية اقتضى سبعمائة عام حتى احتملوا هذا العبء وصار لهم فن اختصوا به دون غيرهم من الامم وكان تقدمهم فى القرن الأخير أكبر من تقدمهم فى الزمن

السابق كله ذلك لأن طول الأدوار التى تقطعها الامم فى حضارتها هى الأولى لا الاخيرة

وأقدم آثار الاغريق الفنية كنوز (ميسين) فى القرن الثانى عشر قبل المسيح تدل على أنهم كانوا همجاً فى تقليدهم مصنوعات الشرقيين فلم تزل عليها مسحتها الشرقية مدى ستة قرون فتمثال (أپولون) فى (تيبيا) وفى (اورخومينا) يشبه التماثيل المصرية شبهاً كلياً الا أنهم من ذلك الحين اتسعت خطاهم وما مضى قرن حتى برزت إلى الوجود تماثيل (فيدياس) و(البارتينون) وهى محدثات فى خلص من مسحة أصله الشرقى ومافه بعد أن نقل عنه دهراً مديداً

وكذلك كان الشأن فى فن العمارات وان كان بيان الادوار التى قطعها أقل سهولة لاننا نجهل ما كانت عليه القصور التى جاء ذكرها فى قصة (هوميروس) قبيل القرن التاسع قبل الميلاد ولكن الذى ذكره لنا عنها من جدران نحاسية وقمم لامعة الالوان وحيوانات ذهبية وفضية أقيمت فى المداخل كالحراس كل هذا يذكرنا قصور الاشوريين المغطاة بصفائح النحاس والآجر المموه نحرها ثيران منحوتة فى الاحجار ومع ذلك فاننا نعرف أن مثال أقدم العمد (الدورية) الذى يرجع إلى القرن السابع قبل المسيح موجود فى الكرنك وبنى حسن بالديار المصرية وأن أعلب

أجزاء العمد المسماة (يونية) مأخوذ من عمد كاب الاشوريين كما نعلم أيضاً أن هذه الاستعارات كانت تضاف إلى بعضها فى أول الأمر ثم مزجت ثم حورت وخرج منها بعد ذلك نوع من العمد مخالف جداً لأصله

ثم جاءت أمة مقرها فى الطرف الثانى من الدنيا القديمة وهى الفرس وتمثلت الفنون وحورتها كما فعل الاغريق ولكن التطور لم يبلغ غاية عندها لأن الاجنبى فاجأها بالفتح فوقفت حركة حضارتها ولم يترك لها الزمان لايجاد فنونها الا قرنين اثنين لا تسعة قرون كما ترك للاغريق فلم يظهر على وجه المسكونة الا أمة واحدة أمكنها أن تبرز للوجود فناً خاصاً بها فى زمن قصير مثل هذا وهى الأمة العربية

يبدأ تاريخ الفرس مع (قورس) وخلفائه الذين استولوا قبل المسيح بخمسة قرون على بابل و مصر وهما الوسطان العظيمان اللذان كان مجد الحضارة يشرق منهما على الأمم الشرقية وأما الاغريق وهم الذين كان الزمان يجىء لهم مثل ذلك الفتح فما كان لهم ذكر فى ذلك الحين وصارت الدولة الفارسية قطب دائرة المدنية الى ثلاثة قرون قبل الميلاد أنزلها الاسكندر عن عرشها وحول بذلك مركز المدنية فى الدنيا ولم يكن للفرس يوم استيلائهم على مصر وبابل فن خاص فنقلوا عنهما النماذج واستعاروهما الصناع ولما

لم تدم دولتهم أكثر من قرنين لم يسعهم الوقت لتغيير الفنون تغييراً جوهرياً ولكنهم كانوا بدأوا بتحويرها تحويراً كبيراً أبان سقوطهم ويستدل على هذه التغييرات بأطلال (فرسو بوليس) الباقية حتى الآن هناك نشاهد الجمع بين فن مصر وأشور وبينهما شيء من فنون الاغريق ونشاهد أيضاً آثاراً جديدة أخصها عمود تلك المدينة وتاجه ذو الرأسين وذلك يدلنا على أن الفرس وهى أمة راقية كانت تبلغ درجة الاغريق ان لم تكن فى اتقان الصناعة فى استخلاص طراز خاص بها لو أمهلها الزمان ودليلنا على ذلك أيضاً آثارهم بعد عشرة قرون فقد قامت عائلة السلوقيين بعد عائلة الأخميديين الذين أخلاهم الاسكندر عن الملك ثم من بعدهم عائلة (الأرشيديين) وأخيراً عائلة (الساسانيين) الذين قهرهم العرب فى القرن السابع بعد الميلاد وفى عصرهم صار للفرس فن عمارات جديدة فاذا سوا أثراً كان له مسحة خاصة لا يمتاز فيها مقتبسه من الفن العربى وفن (الأخميديين) القديم وشىء من فن (الأرشيديين) المنقول عن الفن الاغريقى أبواب شاهقة تبلغ ذروة الناووس مموهة وقناطر (ستينية) وغير ذلك وهذا الفن الجديد هو الذى نقلته أمة (المغول) الى الهند بعد ان حورته بحسب مااقتضته طبيعتها

وفى الأمثلة المتقدمة بيان درجات التحوير التى تدخلها أمة

على فنون أمة أخرى وأنها مختلفة باختلاف طبيعة الأمتين واختلاف الزمان الذى قطعته الأولى فى ادخال ذلك التحوير

لذلك رأينا أن الفنون سقطت عند أهل اتيوبيا مع مطاولة الزمان بسبب ضعف مقدرتهم العملية وأن الأمة الراقية التى وجدت من الزمان متسعاً كاليونان أمكنها أن تخترع من الفن القديم فناً جديداً أو أن تتفوق فيه وأن الأمة التى هى أقل رقياً كالفرس ولم يكن لديها الزمن الكافى أظهرت حذقاً فى تمثل فنون غيرها وبدأت فى تحويرها

وعندنا غير هذه الأمثلة التى أخذناها فى أزمان أغلبها بعيد عنا أمثلة أخرى أقرب عهداً ولها آثار لا تزال بينا وهى تبرهن على عظمة الانقلاب الذى تضطر الأمم لاحداثه فى الفنون المنقولة اليها وهذه الأمثلة آكد فى الدلالة لأنها مأخوذة عن أمم تدين بدين واحد وانما تختلف عن بعضها فى الجنس وهى الامم الاسلامية

لما استولى العرب فى القرن السابع من الميلاد على القسم الأكبر من الدنيا القديمة الاغريقية الرومانية وأقاموا صرح تلك الدولة العظيمة التى امتدت على عجل من الاندلس الى قلب القارة الاسيوية مارة بشمال أفريقيا بدءوا وجدوا أمامهم فن عمارة ذا شخصية كاملة وهو الفن البيزنطى فتناولوه بادئ بدء فى مساجدهم سواء كان ذلك فى الاندلس أو فى مصر أو الشام كما تشهد بذا الجامع

العمرى فى دمشق وجامع عمرو فى القاهرة وغيرها مما لا يزال قائماً حتى الآن ولكن ذلك لم يدم طويلا وما أسرع ما بدأ العرب فى تحوير العمارة بحسب البلدان من قرن الى آخر وقد شرحنا سلسلة هذا التحوير فى كتابنا (مدنية العرب) وهو تحوير كلى للغاية بحيث أنه لا يوجد أدنى شبه بين أثر من آثار عصر الفتح الاول كجامع عمرو فى مصر سنة ٦٤٢ وبين أثر من آثار آخر عهد الدور العربى العظيم كجامع قايدباى بها أيضاً سنة ١٤٦٨ وقد أوضحنا هناك بالشرح وبالصور أن بين الآثار اختلافاً كلياً فى البلاد التى دانت للاسلام كاسبانيا وأفريقيا وسوريا والعجم والهند حتى انه يتعذر اطلاق اسم واحد عليها كما يسهل ذلك بالنظر للآثار القوطية مثلا لأنها وان اختلفت بعض الاختلاف لا تخلو من المشابهة

ولا يمكن أن تكون هذه الاختلافات الكلية فى العمارات بالبلاد الاسلامية آتية من اختلاف المعتقدات اذ الدين فيها واحد ولكنها راجعة إلى اختلاف الشعوب وهذا الاختلاف يؤثر في تطور الفنون تأثيراً جوهرياً كما هو شأنه فى أحوال الأمم ذاتها

وإذا صحت هذه النظرية لزمنا أن ننتظر من بلد تسكنها شعوب مختلفة الاحساس آثاراً متباينة كل التباين رغم اتحاد الدين ووحدة الدولة وهذا هو الواقع كما يشاهد فى الهند ففى الهند

يسهل الوقوف على أمثلة تؤيد ماقررناه فى هذا الكتاب ولذلك أرانى أعود اليها حيناً بعد حين

الهند كتاب تاريخى دونه كل الكتب حكمة وبياناً فهو البلد الوحيد الذى ينتقل فيه زائره من زمن إلى زمن بمجرد انتقاله من ناحية إلى أخرى وتتجلى أمامه أدوار الحياة التى قطعتها الانسانية منذ نشأتها إلى أن وصلت إلى ذروة المدنية هنالك أشكال التقلبات كلها فللعصر الحجرى مشخصات ولعصر النحاس والكهرباء ممثلات والحاصل انه يتعذر على الباحث أن يشاهد أثر عوامل المدنية وسلسلة تطوراتها بأحسن ما يراه فى البلاد الهندية

كانت لدىّ مسألة أحاول حلها منذ زمن بعيد هى معرفة أصل الفنون الهندية فلما طبقت النظريات التى قررتها فى هذا الكتاب اهتديت الى ما كنت أرجو ولما كان الموضوع غير مطروق الا يسيراً وهو مما تنطبق عليه أفكارنا فى علم النفس المتعلق بالشعوب وجب أن نلخص منه ماتهم معرفته

لم يظهر للهند أثر فى الفنون الا بعد التاريخ بزمن طويل فأقدم آثارها لايبعد عن تاريخنا بأكثر من قرنين مثل عمد (آسوكا) ومعابد (كارلى) و (باهوتا) و (سنش) وغيرها وأيام بنيت هذه الآثار كانت حضارة الامم القديمة أعنى حضارة

مصر والفرس وأشور أتمت دورتها وظللتها غياهب الاندثار وقامت مدنية واحدة مقام كل المدنيات أعنى مدنية روما وأصبحت الدنيا لاتعرف الا سيداً هو روما

ولقد أمكن للهند أن تقتبس شيئاً كثيراً من تلك الأمم القديمة يوم أحدث تطفو متأخرة بين طلال التاريخ الا أن العزلة التامة التي ساد على الأذهان أنها كانت تعيش فيها وذاتية مدنيتها الغريبة التي لاقرابة بينها وبين جميع الآثار المتقدمة عليها جعلتنا الباحثين يعتقدون زمناً طويلاً أنها لم تقتبس من ذلك شيئاً أضف الى تلك الذاتية التي لايجادل فيها أحد مافى الآثار الهندية الأولى من اتقان الصنع والتفوق فى الابداع مما لم تزد فيه بعد ذلك ولا بد أن تكون هذه الآثار المنيفة مسبوقة بتجارب بعيدة الأمد الا ان الباحثين تعبوا ولم يعثروا على مايصلون منه الى هذه التجارب السابقة وقد اكتشفت فى العهد الأخير فى بعض الأقاليم النائية المنعزلة بقايا تماثيل تظهر فيها آثار الفن الاغريقي فذهب العلماء المشتغلين بالهند الى أنها أحدثت الفن عن الاغريق

لكن تطبيق النظريات التى شرحناها فى هذا الكتاب وتدقيق النظر فى الآثار التى لاتزال باقيه حتى الآن حملنا على

استفتاح نتيجة تخالف ماذهب اليه أولئك العلماء فنحن نرى أن الهند لم تأخذ عن الاغريق فنهم وما كان فى استطاعتها ذلك وان اختلطت بعض الاختلاط عرضاً بحضارتهم لأن الأمتين كانتا مختلفتين اختلافاً كاملاً في الحس والفكر والخذافة الفنية الى درجة يستحيل معها أن تتأثر احداهما بالاخرى والبحث فى الآثار المنشورة فى الهند يؤدى الى أنه لا نسبة بين الفنين فنحنا نشاهد آثارنا ملأى بما ينم عن فنون الاغريق لا عكسنا أن نرى شيئاً من ذلك فى الآثار الهندية بل ان البحث السطحى يرشدنا الى أن الأمتين متخالفتان كل الاختلاف بحيث لم يوجد فى العالم أمتان افترقتا بل أقول تنافرتا كما تنافرت الهند والاغريق وتزداد هذه المشاهدة وضوحاً كلما تعمقنا فى البحث فى آثار الهند وفى الاطوار النفسية للشعوب التى أقامتها اذ يتبين أن روح الامة الهندية روح خاصة بها ومستقلة عن غيرها استقلالا يتعذر معه تأثرها بمؤثر خارجى بعيد عن معقولها نعم يمكن قهرها من جانب هذا المؤثر الأجنبى ولكنه مهما طالت مدته يبقى سطحياً وعرضياً فكأنما بين شعوب الهند على اختلافها وبين بقية الأمم فروق تبلغ فى ضخامتها تلك الفواصل الطبيعية الموجودة بين بلادهم وبين بلاد المسكونة الاخرى الروح الهندية مستقلة استقلالا تاماً ومهما كان النموذج الذى تحتمها الضرورة الى تمثله فانه ينقلب حتما

فيصير شيئاً هنديا حتى أنك لتجد تلك الروح العربية التي لا تلبث أن تقلب حقيقة الآثار بادية في العمارة حيث يصعب اخفاء الاستعارة ومن الجائز حمل معمارى هندى على تقليد نصب أغريقية الا أنه لا يلبث أن يغلبها فتراها من أول نظرة نصباً هندية بل لا نزال نشاهد هذا التغير في أيامنا مستمراً مع قوة النفوذ الاوروبى فاذا أعطيت الى صانع هندى نموذجاً أوروبياً أيا كان ليصنع نظيره رأيته يحافظ على هيئته العامة ولكنه يبالغ في صنع بعض أجزائه ويزيد في زخرفه وهو يغيره ويبدله وفي المدة الثانية أو الثالثة يكون قد جرده من كل مسحة أوروبية وجعله هندياً صرفاً

وأهم صفة تمتاز بها فن العمارة الهندى هي شدة الاكثار من الجزئيات والتعقيد في التركيب على عكس الفن الاغريقى الممتاز بالبساطة من غير نقص وتلك الصفة موجودة أيضاً في صناعة الادب عند الهنود وهذا هو الذى يجعل الفنين متقاربين وبالتأمل في الفن الهندى نتبين الارتباط الشديد بين المصنوعات الحرفية وبين مزاج الامة العقلى وهي أفصح لساناً لمن عرف كيف يستنطقها ولو فرضنا أن الهنود انقرضوا كما انقرض الاشوريون لدلتنا المقوشات البارزة في معابدهم وتماثيلهم ومبانيهم الاثرية على ماضيهم ولعلمنا منها على الاخص أنهم اشدة خيالهم وفقدان

ملكة النظام فيهم لم يتأثروا أقل تأثير مما نزع الاغريق فيه من
حسن الترتيب وشدة الوضوح ولعلهما أيضاً السبب فى أن أثر
الاغريق فيهم لم يكن الا عرضيا لايتعدى المحل الذى أحدثه
عندهم فى مبدإ انتقاله وقد توصلنا بالتأمل فى آثارهم الى أن نؤيد
بالادلة القاطعة صدق الحدس الذى يتحصل عند من لا يعرف
الهند ومعقولها الا معرفة اجمالية اذ ثبت من البحث الدقيق أن
ملوك الهند كانوا على ارتباط مع ملوك الفرس (الارخيديين)
وكان أثر الاغريق باديًا فى حضارة الفرس وأن ملوك الهند
حاولوا مرات عديدة وعلى الاخص في القرنين الاولين الميلاد
ادخال الفنون الاغريقية عندهم ولكنهم لم يتمكنوا من استبقائها
بل مالبثت أن اندثرت بزوال الملك من يد الذين نقلوها وذلك
للتنافر بين تلك الفنون وبين مزاج الامة العقلى فلم تكن نقلة
الا بقاهر السلطان بل أن التنافر بلغ حداً تعذر معه أن تتأثر
الفنون الاهلية بالفنون الاغريقية فى أيام أولئك الملوك أنفسهم
لانا لانجد فى آثارهم التى شيدوها فى ذلك العصر ولا فى التى بعدها
كالمعابد الموضوعة تحت الارض أثراً للفن الاغريقى وليس ذلك
الاثر بالشيء الذى تتعسر مشاهدته فنرى المجموع هنديًا صرفًا
ولكن بعض الجزئيات وعلى الاخص النقش تدل على أنها نسقت
بيد صانع اغريقى

وكما ظهرت الفنون الاعريقية فجأة فى بلاد الهند احتجبت منها فجأة لما بينها وبين ميول الأمة من التنافر وهذا يدل على أنها كانت محاولة اليها بقاهر الملك ولأن العادة فى اندثار الفنون عند الأمم ليست كذلك بل الفن يتحور ويتحول ويبقى أثر الجديد مشاهداً فى القديم أما الفن الاعريقى فانه حلب جملة الى الهند واندثر مرة واحدة وكان أثره فيها مفقوداً كأثر المبانى الأوروبية التى يقيمها الانجليز فى تلك البلاد منذ مائتى عام

وعدم تأثير الفنون الأوروبية فى الهند مع خضوعها لحكومة ملكة السلطان منذ قرن شبيه بعدم تأثير الفن الاعريقى فيها قبل ذلك بألف وثمانمائة عام فليس من ينكر حينئذ أن هناك نافراً فى تصور التنسيقات الفنية بدليل أن أقاليم الهند كلها قلدت فنون العرب وهم غرباء عنهم كالاوروبيين حتى فى الأقاليم التى لم يصل أثر العرب اليها قد لا تجد معبداً ليس فيه شىء من زخرف العرب نعم يوجد الآن ما وجد فى الأزمان البعيدة عنا أيام حكم الملك (كانشيكا) راجاوات منهم راجا (جماليور) جلبتهم عظمة القوة الاوروبية فشادوا لانفسهم قصوراً أوروبية على الطراز الاعريقى اللاتينى ولكن هذا الفن الرسمي بقى كما كان أيام (كانشيكا) بمعزل عن الفن الاهلى من دون أن يؤثر فيه

ويستنتج من ذلك أن الفن الاعريقى والفن الهندى عاشا

معاً حسباً لحس فى الماضى كما هو الحال فى الفن الاوروبى والفن الهندى فى الزمن الحاضر ولم يتأثر أحدهما بمحاسنه فلا يوجد بين أثر واحد من آثار الهند الحقيقية وبين أثر اغريقى شبه فى المجموع أو فى الاجزاء ولو بعيداً جداً ذلك أمر يستوقف المتأمل فى آثار الهند ولا شك فى أن سبب التنافر بين روح الامتين كما قدمنا لا عدم أهلية الهنود الفطرية فى تمثل فن أجنبى لانهم تمثلوا وصوروا من الفنون ماوافق تلك الروح

دلتنا المشاهدات المعمارية التى جمعناها أن الهنود اقتبسوا الفنون فى مبدإ الامر من الفرس الذين ورثوا حضارة الاشوريين والمصريين لا الذين كانوا فى عهد الملوك (الارخيديين) ومن المعلوم أنه لما فرق الاسكندر شمل الملوك (الاخميديين) سنة ٣٣٠ قبل الميلاد كان للفرس حضارة زاهرة قبل ذلك بمائتى عام ثم أنهم ما كانوا اهتدوا الى طراز جديد فى الفنون ولكن مزج فنون مصر وأشور كان قد أخرج لهم صنعاً بديع المثال ويستدل على ذلك بآثار (برسوبوليس) الباقية الى يومنا هذا حيث تشاهد المداخل المصرية الضخمة والثيران الاشورية ذات الاجنحة وكذا بعض جزئيات من الفن الاغريقى وكل هذا يحمل على القول بأن فنون الحضارة الكبرى فى ذلك الزمان اجتمعت فى تلك البقعة الاسيوية الصغرى

اذن أخذ الهنود الفن عن الفرس ولكن الذى أخذوه هى فنون الكلدان ومصر لأن الفرس انما استعاروا تلك الفنون ولم يغيروها

والبحث فى آثار الهنود يرشد الى المصدر الذى استقوا منه فى بادىء الامر ولذلك يجب لمن يريد الوقوف على هذه الاستعارة أن يوجه نظره الى أقدم آثارهم لان الروح الهندية ذاتية الى درجة لاتجعلهم يبقون زمناً طويلا على طراز لم يكن لهم حتى يبدلوه ويصيروه مخالفاً للاصل مخالفة تامة

والسبب فى أن الهند قصرت عن الاخذ من فنون الاغريق وأخذت عن الفرس بسهولة كبيرة كون فنون هذه الأخيرة ملائمة لمزاجهم العقلى دون الاولى لأن الآثار الاغريقية بسيطة الشكل قليلة الزخرف فلا تعجب الهنود بخلاف الآثار الفارسية ذات التراكيب الكثيرة والزخرف المبالغ فيه والزينة الفائقة فانها تبهر عقولهم وتأخذ بنفوسهم على أن تأثير الفنون الفارسية فى الهنود لم يكن قاصراً على الزمن السابق على تاريخ المسيح أيام كان الفرس وارثى حضارة مصر وأشور بل ظهر أيضا بعد ذلك بعدة قرون أيام ظهور الاسلام لأن المسلمين طرقوا بلاد الفرس قبل ظهورهم فى الهند وكانت حضارتهم أخذت عن حضارة الاولين شيئاً كثيراً فالفن الذى نقلوه الى الهند هو فن فارسى على الاخص

وكانت آثار الاشوريين التى دامت فى أيام (الاحميدين) لاتزال بادية فيه مثل مداخل المساجد الهائلة ولاسيما الآجر المموهة التى كانت تصفح به وذلك من بقايا حضارة الكلدان والاشوريين وقد تمثل الهنود هذه الفنون لأنها كانت توافق ميولهم وأما الفن الاغريقى القديم والفن الاوروبى فى هذا العصر فانهما يجافيان مشاعرهم ويناقضان ميولهم ومن أجل هذا لم يكن لهما فيهم من أثر

ثبت حينئذ أنه لا صلة بين الهند والاغريق من حيث الفنون كما يذهب علماء العمارة الى يومنا هذا وانما ترجع صلتهم الى مصر وأشور من طريق الفرس فالهند مااقتبست من الاغريق ولكن الأمتان استقتا من ينبوع واحد هو ذلك الكنز العام مصدر المدنيات كلها وهو الذى جمعته على طول الدهور مصر واشور استقى منه الاغريق على يد الفينيقيين وأهل آسيا الصغرى واستقى منه الهنود على يد أهل فارس فحضارة الاغريق وحضارة الهند فرعان من نهر واحد الا أن كل فرع جرى مجرى خاصاً فاختلف عن أخيه كما اختلف روح الامتين

ولما كانت الفنون مرتبطة بمزاج الأمة العقلى وكان الفن الواحد يتغير لذلك باختلاف الامم التى تستصنعه لزم أن تختلف الفنون عند الهنود باختلاف شعوبهم رغم الوحدة الدينية والواقع

كدلك كما تدل عليه آثار كل باحية والتباين شديد حداً بين تلك الصور حتى أنا لم نجد بداً من ترتيبها بحسب الاقاليم أعى بحسب الشعوب لا بحسب المعتقدات السائدة فى أهلها لامشابهة بين آثار الشمال وآثار الجنوب مع كونها شيدت كلها فى عصر واحد بين قوم متحدين فى الدين والتباين موجود حى فى رمن المسلمين أيام كانت الهند فاطبة تخضع لحكومة واحدة بلغت النهاية فى القوة والسلطان برى الآثار الاسلامية المحصة مختلفة عن بعضها اختلافاً عظيما بحسب الأقاليم التى شيدت فيها فالشبه ضعيف حداً بين مساجد (أحمدأباد) و (لاهور) و (إكره) و (بيجابور) وكلها تقام فيها عبادة واحدة بل أنه أضعف من الشبه بين آثار (نهضة المعارف) والآثار (القوطية) بأوروبا

وليس التباين فى الهند قاصراً على الآثار بل هو موجود أيضاً فى التماثيل بحسب الاقاليم سواء كان من جهة الشكل أو من جهة الصنع كما يظهر دلك فى نقوش (سانشى) البارزة وتماثيلها وفى تماثيل (برهات) وكلها مصنوعة تقريباً فى رمن واحد وهو أظهر فى مصنوعات ولايتى (أوريسا) و (بوندلكند) أو فى (ميسور) والهند الجنوبية وهو ظاهر أيضاً فى أقل المصنوعات الفنية وليس من يجهل دلك وأقل خبرة تكفى لتمييز علبة من الخشب

المعمور صنع (ميسور) ومثلها من صنع (عررات) أو حلية من حلى (أوريسا) ومثلها من صنع ساحل (بومباى)

ولا شبهة فى أن عمارة الهند دينية قبل كل شىء مثل غيرها من عمارات الشرق ولكن مهما عظم أثر الدين ولا سيما فى الشرق فأثر الامة أكبر

ذلك الروح الذى يجرى بالامم الى غاياتها يجرى بالديانات أيضاً الى مصائرها كما يؤثر فى العادات وفى الفنون وهو أمامنا فى كل عنصر من عناصر المدنية يتناوله بحثنا وهو القوة التى لاقوة فوقها أثره قوة على قدر ألوف الاجيال التى كونته انه خلاصة أفكار تلك الاجيال

الباب الثالث

تاريخ الامم باعتباره مشتقاً من أخلاقها

الفصل الأول

كيف تصدر النظامات عن روح الأمة

تاريخ كل أمة مشتق على الدوام من مزاجها العقلي — أمثلة مختلفة — في أن نظامات فرنسا السياسية متفرعة من روح الشعب — في أن حقيقتها ثابتة وإن تغيرت في الظاهر — في أن جميع احزابنا السياسية ترمى الى غرض واحد صفاتها واسماؤها — في أن مذهبهم هو حصر السلطان وجمعه وقتل الحركة الذاتية في مصلحة الحكومة — في ان الثورة الفرنساوية انما قامت بتنفيذ خطة الحكومة الملوكية — في ان نظامات الامم متفرعة على الدوام من خلقها الملي

اما التاريخ من الجهة العمومية عبارة عن شرح مجموع ماولده روح الامم فهو مشتق من ذلك الروح كما أن أعضاء التنفس في الاسماك متولدة من حياتها في الماء ومن جهل مزاج الأمة العقلي

كان تاريخها في نظره مجموع حوادث مصطربة ناموسها الاتفاق ومن وقف على ذلك الروح تجلى له أن حياة الأمة نتيجة طبيعية لازمة لخلقها النفسي ومهما اختلفت مظاهر حياة الأمم تجد أن روح الشعوب هى التى تنسج برد مصيرها

أجلى مظاهر روح الأمة فى نظاماتها السياسية ومن السهل تقرير ذلك ببعض الأمثلة

هذه فرنسا وهى احدى الأمم التى حصلت فيها الانقلابات الكلية والتى يظهر أن نظاماتها السياسية تغيرت تغييراً تاماً فى نصف سنين والأحزاب السياسية فيها على أشد مايكون من الخلف والتباين اذا أمعنا النظر فى تلك الأفكار المتناقصة فى ظاهرها ودققنا البحث فى تلك الأحزاب التى لا تهدأ الحرب بينها رأينا للجميع عقيدة واحدة تمثل روح الشعب الفرنساوى تمثيلا تاماً فالمتشددون والمتطرفون والملوكيون والاشترا كيون وبالجملة جميع أهل المذاهب المختلفة يجرون تحت أعلام مختلفة نحو غاية واحدة هى فناء الفرد فى الدولة كلهم مهتم بتحقيق حصر السلطان حصراً قيصريا حتى يكون قياد كل شىء بيد الحكومة وحتى تنظم هى كل شىء وتضم اليها كل شىء ومن حياة الأفراد فى أدق الجزئيات وتعفيهم مؤنة إعمال الفكر وان قليلا واستخدام الهمة وان يسيراً وسيان سمى القابض على الزمام ملكا

أو أمبراطوراً أو رئيساً أو غير ذلك فغايتها التي ترمي اليها واحدة وتلك الغاية هي ممثلة مشاعر روح الأمة (١) . والأمة لاتقبل غاية أخرى

من جهة تدفعنا حركة أعصابنا وسهوله ميلنا عما استقر حولنا وتصورنا في أن حالنا يحسن لو أن لنا حكومة غيرالتي تسير بنا الى تغيير نظاماتنا في كل حين ومن جهة ثانية نسمع صوت الأموات يقودنا ويقضي علينا أن لانبدل الا الانماط والظواهر حتى لقد بلغت قوة تأثير روح الشعب اللاتينية فينا درجة لانشعر معها ببطلان الحال الذي نحن فيه

لامشابهة في ظاهر الحال بين نظامنا القديم ونظامنا بعد الثورة العظمى والواقع أنها انما سارت في طريق الملوكية من حيث لاشعور فأتت حصر السلطة الذي كانوا يعالجونه من بضع قرون ولو خرج لويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر من قبرهما وشاهدا ما يجري الآن في فرنسا مما صنعت الثورة لوجها اللوم طبعاً الى مااستعمل من القسوة للوصول اليه ولكنهما يريانه مطابقاً لتقاليدهما كل المطابقة ولا اعترفا أنهما لو عهد إلى

---

(١) قال احد اصحاب النظر الثاقب موسيو (دسون واس) تمتاز روح الامة الفرنساوية بانه ليس من حاجتنا ان تنجح في بعض الاعمال العمرانية أوالكمالية المتعلقة بالحضارة من دون ان تحنها حكومتها عليه وتساعدها فيه

أحد وورلثهما بتنفيذ تلك الخطة لما كان أسعد حظاً في النجاح ولقالا أن أبعد الحكومات الفرنساوية عن الثورة هي حكومة الثورة الفرنساوية ولتحققا أنه منذ قرن تعاقبت الحكومات المختلفة الأوضاع ولم تحاول واحدة منها تغيير النظام الأول ذلك لأنه ثمرة التطور المطابق للناموس الطبيعي واستمرار في التقاليد الملوكية الخاضعة لروح الأمة نعم كان لا مناص لهذين الطبيعيين المجيدين من توجيه بعض النقد ومن ملاحظة أن استبدال طائفة الحكام الشرفاء بطائفة من المستخدمين أوجد في الحكومة إدارة لا شخصية هي أشد خطراً من سابقتها لانها هي العنصر الوحيد الذي لا تناله التقلبات السياسية ولها ماض وسوابق وفيها تضامن طبيعي أخص صفاتها فقدان التبعة واستمرارها جعلها في النهاية صاحبة الكلمة العليا دون سواها ولعلهما ما كانا اشتدا في اللوم على هذا لاعتبارهما أن اهتمام الأمم اللاتينية بالحرية أقل بكثير من اهتمامها بالمساواة فهي تحتمل جميع طرق الاستبداد على شرط أن لا تكون صادرة عن فرد واحد وقد لا يخفى عليهما ما يترتب من زيادة القوة الاستبدادية على كثرة اللوائح وتعدد الضوابط التي تضايق الفرد في جميع حركاته وأنه إذا تم للحكومة ضم كل شيء إلى ذاتها وفرغت من التدخل في جميع المرافق وجردت الأفكار من كل حركة ذاتية تكون الاشتراكية قد

ألقت مراسيها عندنا بلا عناء وبلا حاجة إلى ثورة أخرى ولكنهما كانا يريان أيضاً سور الملوكية أو سور النظر الصائب الذي يعلم أن النتائج تزداد بنسبة المعادلة الحسابية باستمرار فعل المسببات فيها أن الاشتراكية عبارة عن أرقى درجة في سلم الملوكية وأن الثورة إنما تحدث بالوصول إلى تلك الذروة العليا

هكذا تظهر في نظامات الأمة تلك الأحوال العرضية أتينا عليها في أول الكتاب وهذه النواميس الثابتة التي نحاول تقريرها والأولى تخلق الأسماء وتوحد الظواهر والثانية هي نبت الخلق الملي وهي التي تقدر مصير الأمم

وفي مقابل المثال السابق نجد مثال شعب آخر أعني به الأمة الانكليزية لأن مزاجها النفسي مباين لمزاج أمتنا وبهذا وحده بعدت الشقة بين النظامات في الامتين بعداً كبيراً

لا تختلف حقيقة الحكومة في الأمة الانكليزية سواء كان المستوى على عرشها ملكاً كما في بريطانيا أو رئيساً كما في الولايات المتحدة فيهما ينكمش أمر الدولة إلى اقل حدّ ممكن ويعظم أثر الفرد إلى أقصى غاية ممكنة والافراد هم الذين يقومون بالاعمال العامة الكبرى كالمرافئ والترع والسكك الحديدية ودور التربية وهكذا دون الحكومة وهذا على الضد مما يجري عند الامم اللاتينية

وأجلى مظاهر تفوق الحركة الذاتية يشاهد فى أمريكا لان تلك الحركة ضعفت كثيراً في انكلترا منذ خمس وعشرين سنة حيث تغار عليها الحكومة شيئاً فشيئاً وليس فى استطاعة ثورة ولا قانون نظامى ولا مستبد قاهر أن يحصل للأمة ذلك الخلق الذي تستمد منه نظاماتها ولا أن ينتزعه منها إن كان لها من قبل وقد قيل مراراً وأعيد تكراراً أن لكل أمة الحكومة التى هى حقها وما كان الخاطر أن يتصور العقل غير هذا

وسنبين قريباً أنه ليس فى استطاعة الأمة أن تهرب من نتائج مزاجها العقلى وإذا اتفق لها ذلك فليوم أو بعض يوم كما يحيل أن الرمال حماتها الرياح تخالف ناموس الجذب المغناطيسى ومن الوهم الاعتقاد بأن للحكومات والنظامات أثراً في مصير الامم بل أن مصيرها كائن فيها هى لا فى الاحوال الخارجة عنها وكل الذى يجوز تكليف الحكومة به أن تمثل مشاعر وأفكار الامة التى ألقت مقاليدها اليها وكل حكومة هى صورة صحيحة لأمتها بحكم وجودها وما من حكومة ولا نظام يمكن الحكم بصلاحيته مطلقاً أو بفساده كذلك فمن المظنون أن حكومة ملك (الداهومى) كانت حكومة طيبة جداً بالنسبة للامه التى خضعت لسيادته وان أرقى نظام أوروبى ربما كان غير لائق بتلك البلاد ذلك ما يجهله لسوء الحظ رجال الحكومات الذين يتصورون أن

الحكومة بضاعة يمكن تصديرها للامم الاخرى وأن من الجائر حكم المستعمرات على مقتضى نظامات العاصمة ولا فرق بينهم في هذا وبين من يحاول اقناع السمك بامكان البقاء في الهواء بحجة أن التنفس الهوائي ناموس جميع الحيوانات الراقية

ولاختلاف الامم في المزاج العقلي يتعذر بقاؤها كلها تحت سلطان نظام واحد زمناً طويلا وماخضع الانجليزي والارلندى والسلافى والمجرى والعربى والفرنساوى لقانون واحد الا تتكبد المشقات واحتمال ثورات تتجدد من حين الى حين لذلك كان مقضياً على الدول العظيمة الممتدة السلطان على أمم مختلفة بسرعة الزوال وإذا وجد منها من طالت حياتها كدولة (المغول) ثم الانكليز فى الهند فذلك أولا لشدة التنازع بين شعوب تلك البلاد الناشيء من تعددها فلا تفكر فى الاتحاد ضد الاجنبى وثانياً لما للسادة الغرباء من النظر الثاقب والبصر السياسى الذى جعلهم يحترمون عادات الامم الخاضعة لحكمهم ويتركونهم يعيشون فى ظل شرائعهم

مادة البحث في نتائج مزاج الامم العقلى كبيرة لو استقصيناها لكان لنا من ذلك كتب عدة ولتبدل التاريخ كله من بدايته

وبرز في ثوب لم يعرفه الناس حتى الآن . وعندي أنه كان يجب اتخاذ درس هذه المادة قاعدة في السياسة والتربية . فقد يكون ذلك عاصما من خطأ كثير ومانعاً من تعدد الانقلابات لو تيسر للامم أن تهرب من المقـدور لها عقتضى روحها الملى ولم يخفت على الدوام صوت العقل امام ذلك الصوت القاهر صوت من في القبور

الفصل الثانى

تطبيق النظريات السابقة على تطور الولايات المتحدة بأمريكا والجمهوريات الاسبانية الأمريكية

الخلق الانجليزى — كيف تكون الروح الأمريكى — صعوبة التحول الناشيء عن احوال المعيشة — تحتم فناء العناصر المنحطة — الروح والصنسون — السبب فى رقى الولايات المتحدة وانحطاط الجمهوريات الاسبانية الامريكية بالرغم من اتحاد نظامات الجهتين — فى أن الفوضى التى وقعت فيها الجمهوريات الاسبانية الأمريكية نتيجة لازمة لانحطاط الشعب

تبين من الملاحظات الموجزة التى تقدمت أن نظامات الامة مستمدة من روحها وأنه اذا سهل عليها تغيير صورتها فهى لاتقدر على تغيير حقيقتها الآن نريد أن نبين بأمثلة جلية مقدار تسلط هذا الروح على مصير الأمة وأن شأن النظامات فى ذلك شأن لايذكر [1]

---

(١) ترك الاجتماعى الكبير (هربرت سبنسر) فى مؤلفاته الكثيرة الكلام على تأثير الخلق فى مصير الامم وحرته نظرياته الجملة بادىء الامر الى حسن التفاؤل فلما رأى فى شيخوخته ان تغير الخلق الذى به عبر حكمه تغييرا تاما كونت له رأى كله تطير ورأيه الاخير ظاهر فى خطاب نشر حديثاً متعلق

واني أرجع في هذه الأمثلة الى بلد يعيش فيه جنسا لجنس في أحوال لا تكاد تختلف عن بعضها من حيث البيئة شعبان أوروبيان متحضران ذكيان ولا يختلفان عن بعضهما الا بالخلق وأعني به البلاد الامريكية هذه البلاد مكونة من قارتين بينهما برزخ ومساحة احداهما تقرب من مساحة الاخرى والارض متشابهة في كليهما وقد فتحت احداهما واستوطنتها أمة انجليزية وأقامت في الثانية أمة اسبانية والامتان تعيشان تحت نظام جمهوري متشابه لان جمهوريات الجنوب نقلت اليها نظامات الولايات المتحدة وليس هناك ما نستعين به على ادراك سبب التباين بين حال الامتين الا الاختلاف الحسي فلنظر أثر ذلك

ولنبدأ بذكر مجمل من صفات الشعب الانكليزي السكسوني الذي يسكن الولايات المتحدة فهو أشد شعوب الأرض على التقريب وحدة وتماثلا ومن السهل جداً تعريف مزاجه العقلي في مجموعه

بلاد (بدال) ونقلبه محله المجلات والبك شيئاً منه «لقد ضعف ايماني كثيرا في السنين الأخيرة بالنظامات الحرة بعد ان كان متيناً وأرى أنا سنقهقر الى نظام نقص علينا منه يد من حديد ويمثله الاستبداد الاداري الذي تطلبه الاشتراكية ثم الاستبداد العسكري الذي سيخلفه اذا لم نعجل به الينا الاضطراب الاجتماعي»

أحص مايمتاز به هذا المزاج من حيث الخلق قوة ارادة فلما كانت لأمة من الأمم اللهم الا الأمـة الرومانية فى الازمان الخالية وعزيمة لاتجارى وهمة عالية ومقدرة على النفس كاملة واستقلال يبلغ حد الخروج عن المدنية ونشاط قدير ومشاعر دينية شديدة وأدب ثابت ومعرفة واجب تامة

وأما من جهة الذكاء فلا يسهل بيان صفات مميزة خاصة أعنى عناصر ممتازة يمتنع وجودها في الأمم المتحضرة الأخرى وغاية مايمكن ذكره أن هذا الشعب ذو تصور صحيح يسمح لصاحبه بادراك الجهة العملية فى المحسوسات ولا يضل به فى أبحاث وهمية وبعبارة أخرى ذوق شديد الحس بالواقـع وضعيف بالنسبة للنظريات الكلية ثم شيء من ضيق العقل يمنع من الالتفات الى الجانب الضعيف فى المعتقدات الدينية ويجعل هذه المعتقدات فوق المناظرات يضاف الى هذه الصفات العامة أمل قوىّ فى رجل عرف سبيله فى الحياة واعتقد أنه ليس له أن يبدله بأحسن منه رجل عرف ماعليه لوطنه وأهله وربه يبلغ منه الأمل درجـة حقرت فى عينه ماهو غريب عنه والواقع أن احتقار الاجنبى وعاداته فاق فى الانجليز ما كان عند الرومان من ذلك للبرابرة أيام عظمتهم فهم لايرعون ناموس الادب في جانب الاجنبى ولاتجد بين ساسة الانجليز واحداً لايرى جواز استعمال أمور فى جانب

أمة أجنبية لو أتاها فى بلاده لا نزلت به السخط من كل ناحية .

ولا شبهة فى أن ذلك الخلق مسخط فى نظر الفلسفة ولكن فائدته كبيرة في رقى الامة وتقدمها فهو احدى قوى انجلترا كما أشار اليه القائد الانجليزى (ولسلى) ولقد أصاب القائلون فى رفض الانجليز بناء نفق تحت بحر المانش يسهل المواصلات على القارة الاوروبية بأن الانجليز يهتمون اهتمام الصينيين بمنع كل تأثير أجنبى من الدخول الى بلادهم

جميع الصفات المتقدمة موجودة فى طبقات الامة كلها فما منها الا وله أثر فى عناصر المدنية الانجليزية يظهر ذلك لكل من زار بلادهم ولو بضعة أيام يرى الحاجة الى المعيشة الاستقلالية بادية فى مسكن أحقر أجير فهو مسكن ضيق بالضرورة ولكنه منعزل لا يضايقه قرب الجوار ويراه فى محطات السكك الحديدية حيث يتمشى الناس دائماً ولا يقفون متكأ كئين كقطيع الغنم المستسلم خلف حاجز محفور بالرقباء كأنما هم يسهرون على صون أولئك القوم من الخطر لانهم لا يجدون من أنفسهم حيطة يتقون بها دهس العربات يرى عزيمة الشعب بادية فى عمل الاجير الشاق كما يراها فى عمل التلميذ ترك لشأنه فطفق يتعلم السير فى الحياة وحده وقد صار يعلم أنه ما من أحد يهتم بمصيره فيها الا نفسه يراها فى عمل الاستاذ يهتم قليلا بالتعليم ويفرغ جهده فى

تربية الاخلاق لاعتبارها عنده أكبر عامل فى حركة العالم (١)
واذا ألقى نظرة فى الحياة العمومية وجد أن حركة الافراد الآتية
لاقوة الحكومة هى التى تقوم بأعلى الاعمال سواء كان المراد
اصلاح مستشفى القرية أو انشاء مرفأ بحرى أو سكة حديدية فاذا
تعمق فى النظر تحقق أن هذه الامة رغم عيوبها التى يراها الاجنبى
لاجلها أشد الامم جفاء هى الامة الوحيدة الحرة بالمعنى الصحيح
لانها هى الوحيدة التى عرفت كيف تحكم نفسها فتمكنت من أن
تحدد لحكومتها أصغر دائرة ممكنة واذا تصفح تاريخها علم
أنها أول أمة خلصت من كل سيطرة سيان فى ذلك سلطان
الكنيسة وسلطان الملوك فمنذ القرن الخامس عشر كان الفقيه
(فورستيكو) يعارض القانون الانجليزى بالقانون الرومانى
الموروث عن الامم اللاتينية وأخذ القانونين من عمل الملوك المطلقين
ومرماه تضحية الفرد والثانى من عمل المجموع وغايته حمايته
أنى نزلت أمة هذى صفاتها تعلو كلمتها بلا مهل وتقيم صروح

(١) قررت الملكة فيكتوريا مكافأة سنوية لمدرسة (ولنجتون) وعهدت الى الفرنس (ألبير) بتحديد شروط نيلها فقرر أن تهدى لأرفع التلاميذ اخلاقاً لا لأكثرهم علماً وكانت هذه المكافأة تقرر من دون شك فى امة لاتينية للتلميذ الذى يجيد القاء ماحفظه عن الكتب فتعليما كله حتى الراقى منه منحصر فى تحفيظ الدروس للتلاميذ وبأصل فيهم هذه الملكة فيستمرون على القاء ما حفظوا بقية حياتهم

دول قادرة فان كانت الامة التى نزلت فيها ضعيفة لايتمتع بها كما يسعى مثل أمة (پوروح) [١] انقرضت وبادت وان كانت كثيرة العدد كامة الهنود ولها مقدرة على العمل المفيد أخضعت الى تابعية قويه وسخرت الى العمل لفائدة مواليها الا يسيراً

وأخص البلاد التى تظهر فيها آيات رقى الامة الانكليزية المنزع من مراحها العقلى هى البلاد الجديدة كالاقطار الامريكية نزحت تلك الامة الى أقاليم لازرع فيها ولا يقطنها الا نفر قليل من المتوحشين وليس للنازحين مايستعينون به الا ما كان من أنفسهم وكل الناس يعرفون اليوم ماوصلت اليه فلم يمض عليها قرن واحد حتى ارتقت الى مصاف الدول العظمى على وجه المسكونة وقليل من الامم يستطيع الآن مكافحتها والى أوصى بكتب موسيو (دورييه) و (بورجيه) عن الولايات المتحدة من يريد الوقوف على مقدار مايسبقه سكان الجمهورية العظيمة من النشاط والحركة الدائبة هنالك تلمت مقدرة الافراد غايتها فى حكم أنفسهم بأنفسهم وفى تأليف الشركات لانفاذ أعظم المشروعات وتخطيط المدائن وتأسيس المدارس وبناء المرافىء ومد السكك الحديدية وهكذا وهنالك قل تداخل الحكومة حتى

---

(١) هم هنود امريكا الشمالية ومعنى هذا الاسم (ذوو البشرة الحمراء) سموا كذلك لدلكهم اجسامهم بالتراب الاحمر ولونهم الحقيقى اسمر قاتم

يخيل للانسان أن ليس من سلطة عامة بل هو يحار فى أن يجد لتلك السلطة عملا فى غير أمور الشرطة والسياسة

أصبح من المتعذر على غير متصف بتلك الاخلاق أن يرقى فى البلاد الامريكية وهذا هو السبب في أن النازحين اليها لا يؤثرون فى شعبها ومن لم يكن على تلك الصفات فحكمه الزوال لامحالة ولا يقدر على البقاء فى ذلك الوسط الا الانجليزى السكسونى لانه وسط متشبع بالاستقلال وملؤه العزيمة والاقدام الايطالى يموت فيه جوعا والارلندى والزنجى يعيشان فى أحط الخدم

الجمهورية الكبرى هى بلا ريب أرض الحرية ولكنها ليس أرض المساواة ولا أرض الاخاء فما المساواة والاخاء الا وهمان لا تبيان لامحل لهما فى ناموس الارتقاء وما اشتد أثر التناسل فى بلد شدته فى أمريكا فهو فيها لا تعرف للاستثناء بابا ذلك سر بقاء الأمة على مناعتها ونشاطها أما الضعفاء ومتوسطى الحال وفاقدى الأهلية فلا محل لهم فى الولايات المتحدة تراهم لضعفهم معرضين حتما للزوال أفرادا وأمما على السواء ودليل ذلك عشائر (پوروح) لما أصبحت عديمة النفع بادت رميا بالرصاص أو قتلا بالجوع وعما قليل يلحق بهم العملة الصينيون الذين يزاحمون أهل

البلاد بعملهم [١] وقد أصدروا قانوناً باخراجهم مهاجملة ولكنه لم ينفذ لكثرة مايقتضيه من المال اللازم لاجلائهم ولا بد من الاستعاضة عنه عاجلا بالاعدام المطلق وقد بدأ ذلك فى جملة مقاطعات معدنية وكذلك أصدروا قوانين تمنع مهاجرة الفقراء الى الولايات المتحدة منعاً باتاً وأما الزنوج الذين كانوا السبب فى الحرب الأهلية التى قامت بين موالى العبيد وبين الذين ما كان يسمح لهم علكهم فهم محتملون احتمالا لأنهم لايزاولون الاأعمالا ثانوية يعافها الوطنى الأمريكى نعم هم يتساوون معهم فى الحقوق قانوناً ولكنهم فعلا يعاملون كالعجموات ذات النفع القليل وسرعان مايتخلص القوم منهم اذا آنسوا منهم شراً والامريكان مجمعون على الاكتفاء فى ذلك بالطرق القديمة التى سنها قانون (لنش) فأول مايقع منهم جريمة يتصايق منها الناس يرمونهم بالرصاص أو يشنقونهم وقد ذكر الاحصاء وهو ناقص جداً أن الذين اعدمت منهم هذه المشيئة يزيدون على الألف مدى السنين السبع الماضية

---

(١) هناك قانون يسمح للأمة ان تفعل ما تشاء بأسود تراه مجرماً بعد ان يكون قدم للقضاء وحكم عليه بعقوبة هينة او برىء او انه لم يعدم للحاكم لعدم وجود نص وعادتهم انهم يسمونه او يضربونه ضرباً مبرحاً وقد بطلت هذه العادة الآن الا فى الاقاليم الغير الآهلة بالسكان فى الولايات الغربية والجنوبية العربية

ثم هذه هي الناحية السوداء من صورة تلك البلاد غير أن شدة بهائها قادرة على احتمال هذا السواد وإذا أردنا أن نعرف بكلمة واحدة ما بين أوروبا والولايات المتحدة من التفاوت قلنا ان الاولى مثال ما يمكن أن تنتجه الامة التي قامت فيها الحكومة مقام الفرد والثانية مثال ما يمكن أن ننتجه همة الأفراد الذين خلصوا من كل ضغط رسمي وليس لهذه الفروق الكلية منشأ الا الأخلاق ومن المحقق أن الاشتراكية الاوروبية لا تجد لها مكاناً تنزل به في البلاد الامريكية لأن الاشتراكية آخر دور من أدوار استبداد الحكومة فلا تعيش الا في الأمم التي شاخت بعد أن خضعت قروناً طويلة الى نظام أفقدها الاهلية لحكم نفسها

هذا هو الذي أوجده في أحد قسمي البلاد الامريكية شعب تمثلت في مراحه العقلي صفات الثبات ومضاء العزيمة وقوة الارادة فلننظر الآن حال بلاد متشابهة بين يدي شعب آخر لا مراء في ذكائه ولكنه مجرد عن الصفات التي شرحنا آثارها

أمريكا الجنوبية أغنى بلاد الدنيا من جهة حاصلاتها الطبيعية وتبلغ مساحتها ضعف مساحة أوروبا وهي أقل سكاناً منها عشر مرات والارض هناك لمن يفلح وهي معروضة على الجميع والعنصر السائد اسباني وهي تنقسم الى عدة جمهوريات منها

(الأرجنتين) و (البرازيل) و (شيلي) و (بيرو) وغيرها وكلها اختارت نظام الولايات المتحدة فهي تعيش في حكم قوانين واحدة ومع ذلك فجميع هذه الجمهوريات بلا استثناء طعمة للفوضى الدموية والسبب الوحيد هو اختلاف العنصر وفقدان الصفات الاساسية التي رأيناها عند أهل الولايات المتحدة وبالرغم من خصوبة أرضها تنتابها الخسائر من كل نوع ويمحها الافلاس ويقتلها الاستبداد

من أراد الوقوف على مقدار انحطاط الجمهوريات الاسبانية الامريكية فعليه بكتاب موسيو (ت شيلا) فانه سفر نفيس تجرد واضعه عن الغاية فيه بيان أن أسباب هذا الانحطاط هو مزاج الامة العقلي فقد تجردت عن العزيمة والارادة والملكة الادبية وتجردها من هذه المزية الاخيرة وصل الى أحط الدرجات المعروفة أوروبا ذكر المؤلف المشار اليه مدينة من أهم مدن تلك البلاد وهي (بونيوس أيريس) فقال «انها لا تليق بسكنى من فيه حبة من الوجدان الحي وأقل ذرة من الادب» وقال في جمهورية (الارجنتين) وهي أقلها انحطاطاً من هذه الجهة «من نظر الى هذه الجمهورية في معاملاتها التجارية علاه الخجل من سوء الذمم الظاهر كالشمس في كل مكان»

فأمس بلد يستدل فيه على كون النظامات بنت الجنس مثل تلك البلاد وعلى أنه من المستحيل نقلها من أمة الى أخرى

والنفس تتوق الى معرفة ماصارت اليه النظامات الحرة للولايات المتحدة بانتقالها الى شعب أحط منها قال موسيو (شيلد) عن الجمهوريات الاسبانية الأمريكية « انها فى قبضة رؤساء لهم فيها من السلطان المطلق مالقيصر روسيا بل أشد من ذلك لعدم عين المراقبة الأوروبية جميع الموظفين من صنائعهم والاهالى ينتخبون البعض كما يشاؤون ولكن لاعبرة بانتخابهم البتة وليس لجمهورية (الأرجنتين) من الجمهورية الا اسمها والحقيقة أنها حكومة مطلقة فى أيدى أناس اتخذوا السياسة متجراً »

وبلاد البرازيل هى التى كانت تحت من هذا السقوط والفضل فى ذلك للحكومة الملكية التى منعت السلطة من الوقوع فى مخالب الأهواء ولما كانت تلك الحكومة حرة تقدر تريد على ماتقتضيه حالة شعب لاهمة له ولا ارادة سقطت هى الاخرى وهوت معها الأمة الى الفوضى وبدد رجال الحكومة أموال الأمة فى نصف سنين ثم زادوا الضرائب ستين فى كل مائة

وليس سقوط الأمم اللاتينية التى استقرت بالبلاد الأمريكية فاشياً فى السياسة وحدها بل ظاهر أيضاً فى عناصر المدنية كلها ولا شبهة فى أن بقاء تلك الجمهوريات التعيسة متروكة لشأنها ينتهى برجوعها الى الهمجية فقد أصبحت التجارة كلها وكذا الصناعة فى يد الاجنبى من الانجليز والأمريكان والالمان

وأصبحت (ڤالباريزو) مدينة انجليزية . ولولا الأجانب لما بقى شىء في (شيلى) ولولا الأجانب لما بقى لتلك البلاد طلاء المدنية الذى تعتز به أوروبا حتى الآن وفى جمهورية الأرجنتين أربعة ملايين من البيض أصلهم من الاسبانيين ولا أدرى ان كان يوجد واحد منهم على رأس صناعة ذات أهمية حقيقية بل كل ذلك في يد الأجنبى

ان فى سقوط العصر اللاتينى هذا السقوط المريع لجزء كونه متروكا لشأنه ومقارنته برقى العصر الانجليزى فى بلد تجاوره مثاراً للحزن والأسى ولكنها مشاهدة ليس أصدق منها فى الاستدلال على صدق النواميس النفسية التى شرحناها

الفصل الثالث

فى أن تغير روح الامة يغير من تطورها فى الحياة

فى أن تأثير العناصر الاجنبية يغير روح الامة ويبدل حضارتها — مثال الرومان — فى أن حضارة الرومان لم تسقط بالغارة الحربية وانما سقطت باغارة البربر السلمية — فى أنه لم يخطر بخاطر البربر اسقاط الدولة — فى أن غارتهم لم تكتسب شكل الفتح — فى أن الرؤساء الفرنك الأولين اعتبروا أنفسهم على الدوام موظفين فى خدمة الدولة الرومانية — فى أنهم احترموا على الدوام خطورة الرومان وما فكروا الا فى البقاء عليها — فى أن عدول الرؤساء البربر فى بلاد الغول (١) عن اعتبار الامبراطور الرومانى رئيساً عليهم لم يبدأ الا فى القرن السابع — فى أن تغير الحضارة الرومانية تغيراً تاماً لم يكن نتيجة هدم أسسه وتحرس أساطينه ولكنه ناشىء من أن شيئاً جديداً تمثل تلك الحضارة القديمة — عادات العصر الحاضر فى الولايات المتحدة — فيأتيها بسبب تلك العادات من المنازعات الداخلية والافتراق الى حكومات مستقلة متنافرة — فى عادات الأجانب بفرنسا ونتائجها

تبين من الأمثلة المتقدمة أن حضارة الامة لا ترجع الى نظاماتها بل الى خلقها أعنى طبيعة شعبها وكذلك رأينا عند البحث فى تكون الامم التاريخية أن انحلالها ينجم عن التناسل مع الأجنبي وأن الامم التى حفظت نفسها من ذلك الانحلال

(١) هو اسم بلاد فرنسا قديماً

وصانت وحدتها وقوتها هى التى ابتعدت كل البعد عن الاختلاط بالاجناس كأمة (الآريين) فى الهند قديماً وكالامة الانجليزية فى مستعمراتها حديثاً وأن وجود الاجناس وان قلوا كاف لتغيير روح الامة لانه يفقدها القدرة على الدفاع عن خلقها النوعى وعن آثار تاريخها وما صنع آباؤها الاولون

هـذه النتيجة مستخلصة مما قدمناه، واذا صح أن عناصر الحضارة عنوان روح الامة صح أن تغير هذه الروح مدعاة لتغير تلك الحضارة ، ولنا على ذلك أمثلة كثيرة فى الماضى وسيكون الحال كذلك فى المستقبل

أهم مثال صح فى هـذا البحث تطور الحضارة الرومانية وقد ذهب المؤرخون الى أن هـذه المشاهدة كانت فى العالم نتيجة اغارة البربر لـكن اذا دققنا النظر علمنا أن الذى أوجب سقوط الدولة الرومانية انما هى الغارات السلمية لا الحربية وأن البربر فضلا عن كونهم لم يعمدوا الى هدم الحضارة الرومانية فانهم عملوا على احترامها وأفرغوا جهـدهم فى الاطلاع عليها وادامتها فحاولوا ضم لغتهم اليهم والقيـام على نظاماتهم وفنونهم وظلوا يستنقون ماورثوا من تلك الحضارة حتى فى عهـد آخر الملوك (الميروفنجيين) وجميع أعمال الملك شارلمان العظيم مصبوغة بهذه الصبغة

غير أنا نعلم أن مثل هذا العمل مستحيل لذلك مضى على البربر قرون عديدة حتى تسنى لهم تكوين شعب متحد العنصر نوعاً بواسطة التناسل ووحدة المعيشة فلما وحد الشعب الجديد كان له بالضرورة فنون جديدة ونظامات كذلك وان شئت فقل حضارة جديدة نعم لم تخلص هذه الحضارة من تأثير حضارة الرومان الا أن المجهودات التي بذلت لاحياء هذه الحضارة ذهبت ادراج الرياح فما أفلحت (النهضة العلمية) في اعادة فنونها ولا الثورة في اقامة وزن نظاماتها

وعلى ذلك ليس من الواقع أن البربر الذين بدأت غاراتهم على المملكة الرومانية منذ القرن الأول للميلاد وانتهى بهم الامر الى ابتلاعها لم يقصدوا اماتة حضارتها بل تعمدوا استبقاءها وعلى فرض أنهم لم يقاتلوا الرومانيين وأنهم اقتصروا على الاختلاط بهم شيئاً فشيئاً والرومان يقلون يوماً عن يوم فان مجرى التاريخ لم يكن ليتغير ولكانت النتيجة مارأينا أعني أن مجرد اختلاط البربر بالرومان كان كافياً في اماتة الروح الرومانية وان لم ينهدم صرح الدولة وعلى ذلك يصح القول بأن الحضارة الرومانية لم تقلب دفعة واحدة بل استمرت تتحور على مر الايام لالسبب غير وقوعها بين يدي شعوب أجنبية ونظرة بسيطة في تاريخ غارات البربر تؤيد ذلك

دلت أبحاث التقنيات العصرية وأخصها أبحاث (فوستيل دى كولانج) على أن غارات البربر السلمية هى التى قوضت أركان الدولة الرومانية لا الغارات الحربية التى كان الرومان يدفعونها من غير عناء بواسطة البربر المقيمين فى خدمة الدولة . لأنه منذ عهد الامبراطورة الاولين تمكنت عادة استخدام البربر فى الجيش الرومانى وكانت هذه العادة تتقوى وتنمو كلما اتسعت ثروة الرومان ومالوا عن الجندية وفى نصف قرون أصبح الجيش ووظائف الحكومة كلها من الاعراب فكان الجند مؤلفاً من (الورغوط) و (البرجونديين) و (الفرنك)

وبحكم تكوين الجيش وادارة الاقاليم من البربر كان لابد من استقلال الولايات شيئاً فشيئاً وكذلك كان . غير أن نفوذ الدولة كان بالغاً حداً لم يجرأ معه البربر على أن يقلبوا لها ظهر المجن حتى الذى كانت له السيادة على نفس روما والدليل على ذلك أنه لما استولى أحد رؤساء البربر على روما سنة ١٤٧٦ وهو (أدواكر) ملك (الهيرول) التابع للدولة الرومانية أسرع فالتمس من الامبراطور فى القسطنطينية الاذن له بتولى حكم ايطاليا تحت اسم (باتريس) ومعناه (سيد) ولم يخالف هذه السنة واحد من أولئك الرؤساء بل كانوا يحكمون الولايات باسم روما وما فكروا

يوما فى أن يتصرفوا فى الارض أو يمسوا النظامات تغييرما وكان (كلوفيس) يعتبر نفسه موظفاً رومانياً وكم كان افتخاره لما نال من الامبراطور لقب (قنصل) فظل خلفاؤه من بعده ثلاثين عاماً يصدعون بقوانين الامبراطرة ويرون من المفروض عليهم حمل الناس على احترامها ودام الحال هكذا الى القرن السابع حيث اجترأ الرؤساء من البربر فى (الغول) على ضرب السكة وفيها صورهم وكانت لذلك العهد تحمل صورة الامبراطور ومن ذلك العهد يصح القول بأن رؤساء البربر لم يعودوا يعترفون برئاسته. وعليه يكون المؤرخون مخطئين فى بدئهم تاريخ فرنسا قبل الواقع بمائتى عام واضافتهم عشرة ملوك الى عقد ملوكها

كانت غارات البربر على روما بعيدة عن مشابهة الفتح لأن الاهالى داموا على أرضهم ولغتهم وشرائعهم مما لا يقع فى أحوال الفتح الحقيقى كما حصل فى انكلترا لما فتحها النورمانديون ومن المظنون أن زوال الدوله الرومانية حصل تدريجاً بحيث لم يشعر به المعاصرون فكانت الاقاليم متعودة منذ قرون على ولاة يحكمونها باسم الامبراطور ولم يستخلص أولئك الولاة الحكم لانفسهم الا متدرجين على مهل كبير فما بدلوا شيئاً بل استمر الحال القديم تحت أمرة جديدة طول عهد (الميروفنجيين) [1]

---

(١) قال موسيو (فوستيل دى كولانج) ان حكومة الميروفنجيين تكاد

أما التغير الوحيد الذى صار كافياً هو تكوين شعب تاريخى جديد وظهور حضارة جديدة كأثر لازم لهذا الشعب طبقاً للنواميس التى قررناها

هذا ناموس متحدد الأثر على الدوام ويحال أنه أثبت نواميس حياة الامم وكأنا نشاهد معه فى هذه الأيام عادات سامية شبيهة بالتى بدلت حضارة الرومان قد يحال من انتشار الحضارة فى هذا الزمان أن البربر انقرضوا أو أنهم بعدوا عنا وتوسطوا آسيا وافريقيا فلم نعد نحسب لهم حساباً ومن المحقق أننا لن نخشى غارتهم علينا ولا خوف منهم من جهة المنافسة الاقتصادية التى قد يحاربوننا بها يوماً من الأيام كما أوضحت ذلك فى كتاب آخر فليس كلامنا فيهم بل الكلام في أن هناك برابرة نحسبهم بعيدين عنا وهم فى الواقع أقرب منا الآن من برابر الامبراطورية الرومانية لانهم مقيمون بين ظهرانى الامم المتحضرة ذلك أن حضارتنا أصبحت متشعبة العناصر مشتبكة الاجزاء وان الفروق بين الافراد كثرت وتنوعت كما بيناه من قبل وأصبح فى كل أمة عدد كبير من العناصر المنحطة التى لا قدرة على احتمال حضارة زاد رقيها عن طاقتهم وهذا التحليل كل يوم فى إزدياد وهو

تكون صورة لحكومة الامبراطورية الرومانية فى بلاد (الغول) ولاشىء فيها من حكومة الشرفاء

وهو يزداد ضخامة شيئاً فشيئاً وعارنه ستكون القاصية على الامة التي تبلى به

الآن يركب البرر الجديدون عارات الاغتراب الى الولايات المتحدة بأمريكا وهم الذين يخشى شرهم على حضارة تلك الأمة العظيمة فلما كانت الهجرة قليلة وكان المهاجرون من الانكليز كان امتصاصهم سهلا مفيداً وتلك الهجرة هي التي أقامت عظمة أمريكا أما اليوم فقد طفح على الولايات المتحدة سيل جارف من العناصر المنحطة وهي لا ترغب في امتصاصهم ولا تقدر على ذلك إن أرادت دخلها من الغرباء ما يقرب من ستة ملايين بين سنة ١٨٨٠ — ١٨٩٠ كلهم على التقريب من الاجراء الغير الراقيين وهم أجناس شتى وليس في مدينة (شيكاغو) الآن من الامريكان الربع من سكانها وعددهم (١٫١٠٠٫٠٠٠) نسمة فيها (٤٠٠٫٠٠٠) الماني و(٢٢٠٫٠٠٠)أرلندي و (٠٠ ر ٥ بولوني)و(٥٥٫٠٠٠) تشيك وغير هؤلاء ولا امتزاج بين هؤلاء الاغراب وبين الامريكان وهم لا يهتمون حتى بلغة وطنهم الجديد وإنما هناك جاليات تعمل أعمالا ربحها يسير لذلك هم غير راضين ولذلك هم أعداء أهل البلاد وقد كادوا يحرقون المدينة مدة اعتصاب عمال السكك الحديدية حتى اضطرت الحكومة إلى أن تعمل فيهم مدفع (المترليوز) بلا رحمة ومنهم يخرج دراويش تلك الاشتراكية السمحة التي

تهدم العوالى والتى قد يسهل فيامهافى أوروبا بسبب ما ألم بها من الضعف ولكنها تنافر طبع الامريكى منافرة كبرى وسيكون النارع الذى تولده هذه المذاهب فى الجمهورية العظيمة تنازع عناصر افترقت فى تطورها

والظاهر بالبداهة أن الغلبة لا تكون حليفة البربر فى الحرب الأهلية التى ستنسعر نارها بين أمريكان أمريكا وأمريكان الاجانب فى تلك البلاد وأن تلك المعركة الهائلة ستنتهى بمقبرة هائلة تعيد ذكرى استئصال (السامبر)[1] من يد (ماريوس) ولا تختلف عنها الا فى ضخامتها واذا تأخرت الحرب واستمرت الهجرة لا يكون الاستئصال تاماً وربما صارت الولايات المتحدة الى ما صارت اليه الدولة الرومانية أعنى أنها تفترق الى حكومات مستقلة بعضها عن بعض تنتابها الانشقاقات والحروب كما هو الحال فى أوروبا أو فى أمريكا الاسبانية

وليست أمريكا وحدها هى المهددة بهذه الغارات فمن الامم الاوروبية ما يتوقع لها مثل ذلك أعنى الامة الفرنساوية البلاد غنية وعدد سكانها لايزيد ومن حولها أمم فقيرة سكانها فى ازدياد مستمر وهجرتهم اليها أمر محتوم ويساعد على ذلك ازدياد مطالب

---

(١) أمة من البرابرة أغارت على بلاد الغول قبل الميلاد بمائتى عام فلاقاها حاكم اسمه (ماريوس) وحاربها حرباً طحنها بها طحناً

الاجراء الفرنساويين الذين يلحثون قومهم بذلك إلى قبول الغرباء في الاعمال الزراعية والصناعية وللنازحين الينا منافع ظاهرة فلاهم مكلفون بالخدمة في الجندية ولا ينالهم شيء من الضرائب الشخصية أو ان ماينالهم من ذلك يسير جداً لاعتبارهم غير مستقرين وعملهم أقل عناء وأكثر أجراً منه في بلادهم وليست ثروتنا وحدها هي التي تجرهم الينا بل لان البلاد الاخرى تصدر كل حين قوانين قاضية بمنع نزوحهم اليها

ومما يزيد في خطر غارة الاجانب أن الذين ينزلون بغير أمتهم من أحط الطبقات وما تركوا بلادهم إلا لتعذر المعيشة عليهم فيها ونحن نقبلهم على الرحب عملا بمبادىء الانسانية التي حملنا عليها ولذلك يزداد عددهم شيئاً فشيئاً كانوا أقل من (٤٠٠،٠٠٠) منذ أربعين عاما فبلغوا الآن (١،٢٠٠،٠٠٠) وصفوفهم تكثر في كل يوم ولو نظرنا الى عدد التليانيين من بينهم لقلنا أن مرسيليا مستعمرة تليانية بل ليس للدولة الايطالية مستعمرة يبلغ عدد سكانها التليان عدد من يقيم منهم في تلك المدينة واذا لم تتغير هذه الحال وتقف حركة الهجرة يصبح سكان فرنسا في زمن قريب ثلثهم من الألمانيين وثلثهم من التليانيين فماذا يكون من أمر وحدة الامة بل من وجودها في مثل هذه الاحوال ان أكبر مصائب الحرب

أهون عليها من نتائج ذلك وأحف صررا[1] لقد كان للأمم الغابرة إلهام صادق فى شعورهم من الأجنبى لأنهم كانوا يعلمون أن قيمة الأمة بالوطنيين من أهلها لا بعدد سكانها

ومن ذلك يتبين لنا أن أس الأسس فى جميع المسائل التاريخية والاجتماعية مشكلة العناصر فدونها مشكلة سواها

---

(١) ليس فى قدرة الأمم منع هذه الغارات لأنها مسببة عن مسائل اقتصادية لا حيلة للناس فيها إلا أنه فى الإمكان اتخاذ بعض الوسائل لإعاقة نموها كتقرير الخدمة الإجبارية فى الجندية بالأولايات الأجنبيه على كل أجنبى له فى البلد سنتان ولا يبلغ عمره خمسا وعشرين سنة وفرض البدل النقدى على من زاد سنة عن ذلك والغاء التجنس العادى بتاتا إلا استثناء وبشرط سكنى ربع الايراد أو الأجور على كل أجنبى تجنس بالجنسية الفرنساوية أم لم يتجنس وكان مقيما فى البلاد مدة أقل من خمسين سنة والنائب الذى يتمكن من التصديق على مثل هذا القانون يستحق أن يقام له تمثال لتخليد ذكره

الباب الرابع

كيف تتحور الصفات النفسية للامم

الفصل الأول

أثر المبادىء في حياة الامم

فى أن المبادىء التى تدور عليها حضارة الأمة قليلة العدد ـ فى أن تولدها بطىء وكذا زوالها ـ فى أنها لاتؤثر فى سير الأمة الا بعد أن تصير من المشاعر — فى أنها تكون اذ ذاك جزءا من الخلق ـ فى أن بطء تطور المبادىء هو السبب فى بقاء الحضارة زمناً ما ـ كيف تستقر المبادىء ـ فى أنه لاتأثير للمعقول فى ذلك ـ تأثير التوكيد والتعود ـ تأثير أهل الاعتقاد والرسل ـ تشويه المبادىء بانتشارها بين الجموع ـ فى أن المبدأ متى استقر أحدث لساعته تأثيراً فى جميع عناصر المدنية ـ فى أن الفضل فى وحدة النظر عند أهل كل زمان وحدة وسط تحملهم متشابهين فى تصوراتهم وأعمالهم راجع الى وحدة المبادىء فيهم ـ تأثير العادة والرأى السائد ـ فى أن وطأة هذا الأمر لاتخف الا فى أوقات المحنة عند مانفقد المبادىء القديمة قوتها ولا يستعاض عنها ـ فى أن زمن الوحدة هو الذى تتيسر فيه البحث فى الآراء ـ فى أن المذاهب لاتدوم الا بشرط عدم البحث فيها ـ فى أن الامم اذا غيرت مبادئها ومذاهبها اضطرت الى تغيير حضارتها

بعد أن بينا أن الأخلاق النفسية للأمم ذات ثبات مكين وأن تاريخ الأمم راجع الى هذه الاخلاق قلنا ان العناصر النفسية قابلة للتغير على مر الأيام وتعاقب الوراثة كالعناصر الجسمانية سواء بسواء ونقول الآن ان هذا التغير أهم الاسباب فى تطور المدنية

وأسباب التغيرات النفسية كثيرة منها الحاجة والتنافس فى العيش وتأثير البيئات وتقدم العلوم والصناعة والتربية والمعتقدات وغير ذلك وقد نشرنا قبل الآن كتابا شرحنا فيه شأن كل واحد من هذه المؤثرات فلا محل هنا للاسهاب فى هذا الموضوع (١) وانما نختار البعض من هذه العوامل لنبين وجه فعلها وهو ما سنقرره فى هذا الفصل وما يليه

يرشدنا النظر فى حضارات الأمم التى دونت فى التاريخ منذ القدم أن رقيها كان وفقاً لمبادىء قليلة العدد ولو أن تاريخ الأمم اقتصر على تاريخ هذه المبادئ لما بلغ من الطول ما قد بلغ فان الحضارة التى يتولد عنها مدى قرن بأكمله مبدأ واحد أو مبدآن أساسيان فى عالم الفنون أو العلوم أو الآداب أو الفلسفة تعد من أبهى الحضارات وأرقاها

ولا يظهر للمبادىء تأثير حقيقى فى روح الامة الا اذا اختمرت

---

(١) الانسان والجمعية من حيث الأصل والتاريخ جزء (٢) مبحث تطور الجمعيات البشرية

على مهل ونزلت من أعالى السطر العقلى الى عالم المشاعر المستقر اللاتنهى حيث تتكون دواعى الحركة الانسانية اذ ذاك تصير المبادئ جزءا من الخلق ويكون لها تأثير فى الحياة لان الخلق يحتاج فى تركيبه الى تراكم طبقات من الافكار اللانتهية

اذا اختمرت المبادئ على هذا النحو أصبح أثرها شديداً جداً لانها تفلت حينئذ من تحكم العقل فيها ألا ترى أن ذا اليقين الذى استولى على قلبه مبدأ دينى أو غير دينى بعيد عن التأثر بالمعقول مهما كان ذكياً وكل الذى يكون من مقدوره — والغالب أنه لايحاول ذلك — هو تلمس الحيل العقلية والقلب والابدال توصلا الى ضم الرأى الذى يعارض به الى الرأى الذى تمكن منه

واذا ثبت أن المبادىء لاتؤثر فى الحياة الا اذا انتقلت من عالم الشعور الى عالم اللاشعور تبين السبب فى بطء تغيرها ووضحت العلة فى أن الذى تبنى عليه الحضارة منها قليل وأنه لابد من زمن طويل لتطورها وعلينا أن نسر بأن هذا هو الواقع والالما كان للحضارة أن تحيى طويلا كذلك من حسن الحظ قابلية المبادىء الجديدة للاستقرار اذ لو دامت المبادىء القديمة مدى الدهر لاستحال أن ترقى الحضارة أبداً وبطء تطور المعقولات هو السبب فى أنه يلزم لاستظهار المبادىء الجديدة

عدة أجيال كما أنها لا تزول الا بعد أجيال عدة وأرقى الامم حضارة هى التى تيسر لها أن تمسك مبادئها الأساسية على بعد واحد من التغير والجمود . أما الامم التى لم يكن لها هذا الحظ فبادت والتاريخ يذكر بقاياها

وعلى ذلك يتجلى لنا بالسهولة أن كثرة المبادىء وقرب عهد ظهورها ليس هو الذى يستوقف النظر فى تاريخ الامة بل على الضد قلتها المتناهية وبطء تحولها وشدة تأثيرها فالحضارة تبنى بعض المبادىء الاساسية تبقى ببقائها وتتغير بتغيرها قامت حياة العصور الوسطى على مبدأين المبدأ الدينى ومبدأ حكم الاشراف والى هذين المبدأين ترجع فنون تلك الازمان وآدابها ونظرها فى الحياة على الاطلاق ثم طرأ على هذين المبدأين بعض التغيير زمن (النهضة) وقد تجدد خيال العصر الاغريقى الرومانى وتمكن من عقل أوروبا بدأ التطور فى تصور الحياة وفى الفنون والفلسفة وصناعة الادب ثم تداعت قوة السنة السالفة وصارت الحقائق العقليه تحل محل الحقائق النقليه فتطورت الحضارة تطوراً جديداً والظاهر أن المبادىء الدينيه فقدت الآن القسم الاكبر من سلطانها فوهنت قوائمها وأصبحت جميع النظامات الاجتماعيه التى كانت مرتكزة عليها مهددة فى وجودها

يجب أن نكثر الامثلة للاتيان على تاريخ تكوين الافكار

وتمكنها واضمحلالها وتغيرها وزوالها ولو أتيح لنا التجول في الجزئيات لبينا أن كل عنصر من عناصر المدنية كالفلسفة والدين والفنون والادب وهكذا يرجع الى عدد يسير من المبادئ الاساسية البطيئة النمو ولا تشذ العلوم ذاتها عن هذه القاعدة فعلم الطبيعة قائم الآن على مبدإ عدم انعدام القوة وعلم الطب قائم على مبدأ أصغر ما خلق وتاريخ هذه المبادىء يدل على أنها لا تستقر إلا بالصعوبة رويداً رويداً مع كونها من أبحاث العقول المستنيرة ومع أن كل شيء يسير على محل في هذا العصر وأنه لا تأثير للشهوات ولا للمنافع في الباحثين وأهل النظر يحتاج المبدأ العلمي الاساسي الواحد الى خمسة وعشرين عاماً حتى تنجلي غوامضه ويأخذ قراره ولم يمض زمن أقل من هذا في تقرير أوضح المبادىء وأقلها عرضة للخلاف كمبدأ الدورة الدموية

وجميع المبادىء متحدة في كيفية التكوين والظهور لا فرق في ذلك بين المبدأ العلمي والمبدأ الفلسفي أو الفني أو الادبي أو غيره يعتنق المبدأ في أول الامر عدد قليل من المبشرين به ثم الذين يعظم تصورهم بما هم عليه من قوة اليقين أو بما لهم من المكانة الرفيعة وينتشر أثرهم بالالقاء أكثر مما ينتشر بالتحرير لأن عناصر الاقناع الحقيقية ليست في قوة البيان وانما يدين المخاطب لرأى المتكلم لنفوذ الثاني أولكونه يوجه الخطاب الى ما يشتهي الأول ولكنه

لايؤثر فيه أقل تأثير اذا وجه خطابه للعقل وحده . فلا تتأثر الجماعات خاصة بالتقريرات ولكنها تتأثر بالتوكيدات وقوة التوكيد تابعة لنفوذ مقدمها

ومتى نجح المشرون فى اقناع من حولهم كان لهم منهم مبشرون آخرون اذ ذاك يدخل المبدأ الجديد فى باب البحث والمناظرة وتكون المعارضة فيه عامة فى مبدأ الأمر لأنه يصطدم بالضرورة مع أمور كثيرة ثابتة من قبل فيهتاج ذلك القائمين بالدعوة اليه لأن المعارضة تزيدهم اقتناعاً بتفوقهم على من عاداهم وتكبر عزيمتهم فى الدفاع عن مبدإهم لا لمجرد كونه حقاً اذ الغالب أنهم لايعرفون مبلغ ما فيه من الصواب بل لأنهم اختاروه وأعلنوه هنالك يشتد التحادب فيه ومعنى ذلك فى باطن الأمر أن الدعاة يقبلون المبدأ على علاته والآخرون يرفضونه كذلك ويكثر النفى والتوكيد بين المتحادبين وتقل البراهين لأن أسباب قبول مبدأ أو رفضه عند أغلب العقول راجعة الى الشعور وهو لايتأثر بالبرهان الا قليلا

وبينما الجدل يزداد احتداماً ينمو المبدأ الهوينا وتميل اليه الناشئة لعلة أنه غير متفق عليه لأن الشباب ولوع بالاستقلال وأخص ميوله معارضة المبادىء الى درج القوم عليها وهكذا يتدرج المبدأ فى النمو ولا يلبث أن يستغنى بذاته عن النصراء

فيأخذ فى الانتشار بمجرد عدوى التقليد وهى ملكة شائعة بين الناس جميعاً بدرجة عالية كما هى فى آبائهم من القردة بشهادة العلم الحديث

متى دخل المبدأ الجديد فى دور الانتشار بعامل العدوى فقد دخل فى دور النجاح وسرعان مايقبله الرأى فيكون له من ذلك قوة دقيقة بمادة ترسله الى العقول شيئاً فشيئاً ، وتبنى له فيها بيئة خاصة وتوجد له ملكة يسكنها ويصير كأنه العثير دقها نسابا فى جميع التصورات وتحلل كل مايصنع فى عصره الى أن يصير هو وآثاره جزءا من الموروثات العادية التى تخضع لحكمها بالتربية وبذلك يتم له الفور ويلتحق بالمشاعر فتكون له درعاً يقيه دهراً طويلا

ومن المبادىء التى يقوم عليها بناء الحضارة مايبقى مزيته للطبقات الراقية كالتى تقوم بها الفنون أو الفلسفة ومنها مايبرل حتى يبلغ أسفل الطبقات كالدين والسياسة على الأخص ولكنها لاتهبط الى هذا الحد الا مشوهة جداً واذا بلغته عظم تأثيرها فى النفوس الساذجة التى لاقبل لها على البحث فيها هنالك يكون المبدأ علماً على أمر لاسبيل الى مقاومته وتتدفق آثاره بعنف كأنها السيل ضعفت السدود عن رده ومن السهل أن تجد الانسان فى كل أمة مائة ألف رجل يقدمون أنفسهم ضحية لمبدأ تمكن من نفوسهم حينئذ تظهر الحوادث الجسام التى تغير وجه

التاريخ . ولا يقدر على القيام بها الا الجماعات فما الادباء ولا أهل الفنون ولا الفلاسفة هم الذين رفعوا راية الاديان التى دانت لحكمها الدنيا وشادوا الممالك التى امتد سلطانها من وجه الكرة الى وجهها الثانى وأحدثوا الثورات الدينية والسياسية التى قلبت كيان أوروبا بل الذين فعلوا ذلك هم الجهلاء الذين اشتد تمكن المبدأ فى نفوسهم فهانت عليهم فى سبيل نصرته بهذه العدة الضئيلة نظرياً القوية فعلا فتح رحل صحارى بلاد العرب قسماً من الدنيا الاغريقية الرومانية وشادوا دولة من أضخم الدول التى ورد ذكرها فى التاريخ وبمثل هذه العدة الادبية أعنى سلطان المبدإ على النفوس وقف جند (المهد) البواسل فى وجه أوروبا بأجمعها

للاعتقاد قوة لا يغلبها إلاّ قوة اعتقاد مثلها فليس للإيمان عدو الاّ الإيمان والنصر حليفه متى كانت القوة المادية التى تنترصه خادمة لشعور ضعيف ومعتقدات تولاها الوهن لكن اذا اصطدم بإيمان يماثله فى قوته أصبح الحرب عواناً وصار النصر منوطاً بالأحوال الثانوية التى تكتنف القتال منهما وأهمها ما كان راجعاً الى قوة الخلق وتعود الانقياد وحسن النظام واذا تأملنا تاريخ العرب أيام فتوحاتهم الأولى — وأول الفتوحات أصعبها فى العادة وأهمها — رأينا أنهم وجدوا أمامهم خصوماً ضعفت أخلاقهم الادبية وان كان نظام جنديتهم محكماً فقدمت جيوشهم

أولاً الى البلاد السورية فلم يجدوا فيها إلاّ جيشاً بيزنطياً مؤلفاً من الاجراء الذين ليس لهم ميل الى تضحية أنفسهم فى سبيل عرض ما وكانت شدة ايمان العرب تزيد قوتهم العددية عشر أمثالها فلم يعانوا فى تمزيق شمل تلك الجيوش التى لم يكن لها خيال تقابل من أجله وكذلك استطاع نفر قليل من الاغريق تمكن منهم حب المدينة من تشتيت شمل جيوش (اكزرسيس) العظيمة وكانوا يعتبرون وتتغير نتيجة الحرب لو أنهم اشتبكوا قبل ذلك ببضع قرون مع الجيش الرومانى فمن الواضح أنه اذا التقت قوتان أدبيتان متساويتان كان الفوز لأحكمهما نظاماً لذلك غلبت جيوش أهل (العهد) الفرنساوية جند (الفنداى) لتساوى الفريقين فى قوة الاعتقاد وتفوق الأولين فى حسن النظام

ومن هنا يتبين أن النصر على الدوام حليف المؤمنين لا فرق فى ذلك بين السياسة والدين واذا ظهر الآن أن المستقبل للاشتراكيين رغم فساد مذهبهم فساداً مريعاً فذلك لأنه ليس من صح اعتقاده فى هذا الزمان غيرهم أما الطوائف التى بيدها زمام الأمم فى عصرنا فانها فقدت اليقين فى كل شىء حتى فى مقدرتها على الدفاع عن نفسها من سيول البربر التى تكتنفها من كل جانب متى قطع المبدأ أدوار التعثر والتحوّر والتغير والجدل والانتشار

واستقرت صورته الأخيرة ودخل فى روح الجموع صار عقيدة أعى حقيقة مطلقة لا يتطرق اليها الشك ولا جدال فيها وانضم بذلك الى المعتقدات العامة التى تقوم بها حياة الأمة وعمومه يجعله ذا شأن ممتاز من حيث التأثير فى النفوس أنك لتجد أزمان التاريخ العظمى كعصر (اغسطس) وعصر (لويس الرابع عشر) هى التى خلصت فيها المبادئ من أدوار تكوينها واستقرت بعد أن بطلت المناظرة عليها وتمت لها السيادة على الأفكار هنالك تصير المبادئ منارات تصبغ بألوانها الصوئية كل ما أشرقت عليها

متى انتصر مبدأ جديد ظهر أثره فى عناصر المدنية كبيرها وحقيرها ولكنه لا يحدث أثره كله إلا اذا دخل فى روح الجموع فهو ينزل من العقول السامية التى ظهر فيها الى الطبقة التى تليها ثم الى التى بعدها متحوّراً متغيراً حتى يكتسى حلة تجعله من نفوس الجموع محلاً مقبولاً وهنالك يتمّ له الفوز واذ ذاك يصاغ فى كلمات وجيزة وربما صيغ بكلمة واحدة تثير فى الخيال صوراً قوية أخّاذة أو مريعة لكن مؤثرة على كل حال مثل ذلك الجنة والنار فى القرون الوسطى كانا لفظين قصيرين وكان لهما قوة سحرية تفعل فى كل شىء وتفسر للنفوس الساذجة كل شىء ولكلمة (اشتراكية) فى مخيلة العملة فى هذا العصر صورة

ساحرة جامعة ذات قوة تأخذ بمجامع النفس وهى تثير صوراً مختلفة بحسب الجموع التى تنتهى اليها وكلها مؤثرة جداً رغم سذاجتها

تمثل كلمة (اشتراكية) فى ذهن الفطرى الفرنساوى صورة جنة تساوى الناس فيها فتمتعوا بالسعادة الكاملة فى ظل الحكومة وتمثل للعامل الألمانى حانة طبق دخانها وطفق رجال الحكومة يقدمون لكل قادم أطباقاً من لحم الخنزير والكرنب المملح ودنانا من الجعة ومن المعلوم أن كلا الرجلين حالم المساواة وحالم الكرنب لم يلتفت أبداً الى معرفة مقدار المقسوم ولا الى عدد المقتسمين ذلك لأن أخص صفات المبدأ اذا ثبت أنه يأخذ خيره بصورة مطلقة لا يؤثر فيها النظر ولا يضعفها الاعتراض

اذا تم استقرار المبدأ رويداً رويداً حتى صار عقيدة كان فوره طويل الأمد وحبط كل دليل يقام لزعزعته ثم مصيره أن يناله ما نال المبدأ الذى حل هو محله فيهرم ويتداعى ولكنه لا يبلغ درجة البلى الا بعد أن يقطع فى قهقره أدواراً من التغير والمسخ وذلك لا يتم إلاّ فى عدة أجيال ويكون قبل موته قد عاش دهراً مضيفاً الى المبادئ القديمة الموروثة التى يعبر عنها بالأوهام ويحترمها الناس رغم ذلك فللمبدأ القديم سلطان على النفوس يبقى وان جرد اسمه من معناه وصار صوتاً لا مردّد له فى القلوب

وهكذا يدوم كل ما تقادم عهده من تراث الآراء والاتفاقات أى المألوفات التى يكاد المرء يعبدها احتراماً وهى لا تحتمل النقد لحظة واحدة لو أنا هممنا بالبحث فيها ولكن القليل من الناس يجرأ على البحث في أفكار نفسه كما أن قليلاً من الأفكار يبقى اذا تناوله أقل بحث سطحى

الأولى أن لا يقدم المرء على هذا البحث المخيف ومن حسن الحظ أنه بعيد عنه لأن النقد ملكة راقية نادرة جداً والتقليد ملكة شائعة جداً ولذلك نرى جمهور الناس يقبلون المبادئ كما تأتيهم على علاتها بمحض شيوعها أو من طريق التربية ومن هنا اشترك السواد الأعظم من كل أمة وكل زمان فى حد وسط من التصورات والمعقولات فأشبه بعضهم بعضاً شبهاً قوياً حتى أن الناظر الى فنونهم وآدابهم وفلسفتهم يعرف منها الزمن الذى عاشوا فيه وان بعد دهر مديد وعلة ذلك التشابه القوى ما ناله الخلف الى السلف بالوراثة والتربية والبيئة والعدوى والآراء نعم ليس الخلف صورة تامة للسلف إلاّ أن الذى اتحدا فيه هو كيفية تصوُر المعقولات والمحسوسات وذلك يؤدى بالضرورة الى نتائج متشابهات

ولنا أن نسرّ من هذا لأنّ روح الأمة إنما يتكوّن من مجموع تلك التقاليد والمشاعر والمبادئ والمعتقدات وكيفيه

تصور المعقولات وقد علمنا أن قوة هذا الروح من قوة ذلك المجموع وهو الذى تدوم بدوامه الأمم فاذا ما اعتراه الانحلال تقوض بنيانها فهو قوتها الحقيقية وهو سيدها الحقيق كثيراً ما مثلوا ملوك البلاد الأسيوية مستبدين مبادئهم أهواءهم على أن تلك الأهواء محصورة فى دائرة لا تخرج عنها لانك لا ترى قوة المجموع التى أشرنا اليها أشدّ منها فى بلاد الشرق فالتقاليد الدينية التى اهتزت أركانها عندنا لا تزال على متانتها الاولى عندهم وأكبر المستبدين عتواً لا يصادم عندهم هذين السيدين الرأى والسنة لانه يعلم حق العلم أنهما أشد بأساً منه وأعظم سلطاناً

اليوم يوجد الرجل المتحضر فى عصر من أشد أدوار التاريخ محنة دور لا تزال المناظرة دائرة فيه على المعتقدات لأن المبادئ القديمة التى تشتق منها الحضارة فقدت نفوذها ولما تستقرّ المبادئ الحديثة اليوم لا يدرى الانسان مقدار أحد الرأى والعادة من النفوس ولا الذى كان يلقاه المبدع من وراء تهجمه على هاتين القوتين ولكنه يعرف ذلك اذا رجع الى تاريخ الحضارات القديمة أو إلى ما كان منذ قرنين أو ثلاثة

يروى لنا بعض الجهلاء من القصصيين أن الاغريق كانوا أحراراً وما كانوا إلاّ عبيداً للعادة والاعتقاد كان يحيط بالواحد منهم دائرة من المعتقدات يقدسها وما كان يخطر لأحد أن

يجادل فيما جرى عليه قومه بل كان لذلك خاضعاً مستسلماً وما عرفت الدنيا الاغريقية الحرية الدينية ولا حرية الحياة الذاتية ولا الحرية من أى نوع بل أن شرائع (آثينا) ما كانت تبيح للوطنى أن يعيش بمعزل عن الجماعة ولا أن يمتنع عن اقامة حفلات الأعياد الوطنية كما يقيم الصلاة وما كانت حرية الارمان الاولى الاّ خضوع الرجل لنير مبادئ البلد التابع له خضوعاً تاماً تبلغ فيه درجة المشاعر اللاتنهية ولو أتيح لاهل بلد أن يكونوا أحراراً فى أفكارهم لما عاش هذا البلد يوماً واحداً بين تلك الجموع التى كان وجودها قائماً على حرب مستمر ولم يبدأ دور انزواء الآلهة والنظامات والمذاهب الا من اليوم الذى جار فيه النظر فيها

أما فى حضارة هذا العصر فقد تهدمت على التقريب المبادىء التى كانت تستمد منها قوة العادة والمعتقد فضعف لذلك أثرها فى النفوس ودخلت فى دور البلاء الذى تصير فيه المبادىء القديمة أوهاماً وما لم يحل محلها مبدأ جديد فالفوضى خليقة الافكار ولهذه الفوضى فضل هو احتمال الجدل والمناظرة فعلى الكتاب والفلاسفة والمفكرين أن يشكروا هذا الدور وأن يسارعوا بالاستفادة منه لانهم لن يروه ثانياً متى انقضى قد يعتبر هذا الدور دور تقهقر وسقوط الا أنه دور يتمتع العقل فيه بالحرية التامة فهو لذلك لا يحتمل الدوام طويلا لأن أحوال

الحضارة الحاضرة تشعر بأن الأمم الأوروبية سائرة الى دور لايقبل الجدل ولا يحتمل الحرية وسببه أن المذاهب الجديدة لن يثبت قدمها الا اذا حظر البحث فيها وأصبحت كالتى سبقتها لاتطيق المعارضة

لايزال الانسان فى هذا الزمان يبحث عن المبادىء التى يشاد عليها بناء الاجتماع فى المستقبل وهذا هو الخطر الذى يتهدده لأن أهم شىء فى تاريخ الأمم وأكبر مؤثر فى حياتها هو تغيير المبادىء الاساسية لا الثورات ولا الحرب اذ من السهل اصلاح ماأفسدته ومن لوازم هذا التغيير تغيير جميع عناصر المدنية فالثورة الوحيدة التى يخشى منها على حياة الأمم هى التى تحدث فى الافكار

ليس الخطر فى اعتناق الامة مبدأ جديداً بل الخطر الاكبر فى اضطرارها الى الانتقال من مبدأ الى مبدأ حتى تعثر على الذى يصلح أساً يقام عليه بناؤها الجديد كذلك ليس الخطر فى كون المبدأ غير صواب فقد كانت المبادىء الدينية التى عشنا عليها حتى الآن خطأ بل هو فى التجارب العديدة التى لابد منها لمعرفة ملاءمة المبادىء الجديدة لاحوال الأمة التى تحاول العمل بها ذلك لأن الجموع لاتشعر لسوء الحظ بفوائد هذه المبادىء الا بالتجربة ، نعم لاحاجة لأن يكون الانسان ضليعاً من علم النفس

ولا من علم الاقتصاد ليبىء بأن العمل بمقتضى مبادىء الاشتراكية الحاصرة يقضى بالأمم الى أردل درك الانحطاط وأخزى صور الاستبداد لكن أين السبيل لمنع الأمم وقد افتتنت بتلك المذاهب من قبول ذلك الانجيل الجديد ؟

لقد علمنا التاريخ مايسحم عن الدعوة الى الافكار فى زمان لم يتهيأ أهله لقبولها ولكن الانسان لايلتمس العبرة من التاريخ فقد حاول (شارلمان) أن يعيد الدولة الرومانية الا أن مبدأ الوحدة لم يكن ميسوراً تحققه فبات عمله عونه وكذلك كان شأن (نابليون) واستمد (فيليب) الثانى حدة ذهنه وسلطان أسبانيا وكانت لها السيادة بين الأمم فى مقاومة حرية البحث التى كانت تنتشر فى أوروبا باسم (البروتستنتية) فلم يفلح وكانت عاقبة هذه المقاومة وقوع أسبانيا فى خراب وانحطاط لم تقم لها من بعده قائمة وفى عصرنا هذا قام متهوس على رأسه تاج يدعو الى مبادىء وهمية مدفوعاً بذلك الشعور الفاسد الذى امتازت به أمته يريد توحيد الأمم المتحدة فى الجنس فكان من وراء ذلك وحدة ألمانيا ووحدة ايطاليا وضياع أقليمين من أملاكنا وابروائنا الى أمد بعيد افتتنت الامم بمذهب فاسد فقالوا قوة الجند فى كثرة العدد ونشروا على القارة الاوروبية بساط حرس شاكى السلاح وعاقبة ذلك الافلاس لامحالة ولو أن هذه

الجيوش الحرارة الدائمة أبقت لها بقية من المال والوحدة والسلطان فسيأتي عليها مذهب الاشتراكيين في العمل ورأس المال وإبطال حق الملكية الشخصية وإقامة الملكية العامة مقامها

من المبادىء الفعالة في أحوال الأمم مبدأ الجنسية كان السياسيون قديماً يكبرون شأنه ويجعلونه قطب دائرة سياستهم وكان له الأثر السيء فإن أوروبا وقعت بسبب طموحها الى تحقيقه في أشد الحروب ضرراً وجماهيرها تبيت متأهبة سلاحها وسيقودها حتماً الى الدمار والفوضى والسبب الوحيد الظاهر الذي كانوا يدافعون به عن هذا المبدأ هو أن أقوى الأمم وأبعدها عن الخطر أكبرها وأكثرها أهلا ومع ذلك كانوا يتهامسون بأن مثل هذه الأمم أسهل فتحاً وأقرب منالا وقد ظهر الآن أن أصغرها وأقلها عدداً كالبرتغال واليونان وسويسرا وبلجيكا وأسوج وإمارات البلقان أبعدها عن الخطر لقد كان مبدأ الوحدة سبب خراب ايتاليا وكانت زاهرة فأصبحت على شفا جرف الثورة والافلاس اذ بلغت ميزانية جميع ولاياتها مليارين وكانت قبل الوحدة البليانية لاتبلغ (٥٥٠) مليونا

لكن ليس في طاقة الانسان أن يوقف تيار الافكار بعد أن تتصل بالنفوس ولا بد لها من اكمال دورتها وحماتها في

العالم هم الذين أعدهم القدر ليكونوا أول ضحاياها وليس الا الغنم تمشى طائعة خلف الدليل الذى يقودها الى المذبحة فعلينا أن نحنى الرؤوس أمام المبدأ لأنه متى بلغ فى تطوره درجة معلومة لاينفع فيه برهان ولا يستظهر عليه بيان ولا تتخلص الامم من ربقة مبدأ استولى على قلبها الا بمرور الدهور أو بعصف لثورة وقد يكون الاثنان لازمين وما أكثر الاوهام التى افترستها الانسانية فافترستها على الدوام

الفصل الثانى

تأثير المعتقدات الدينية فى تطوّر المدنية

فى رجحان تأثير المعتقدات الدينية — فى انها كانت على الدوام الركن الاكبر فى حياة الامم — فى ان اكبر الحوادث التاريخية والنظامات السياسية والاجتماعية مشتقة من المبادئ الدينية — فى انه تتولد مع كل مبدأ دينى جديد حضارة جديدة — فى قوة الخيال الدينى — اثره فى الخلق — فى انه يوجه جميع الملكات نحو غرض واحد — فى ان تاريخ الامم السياسى والفنى والادبى متولد من معتقداتها — فى ان اقل تغيير فى المعتقدات الدينية يحدث تقلبات كبيرة فى حياة الامة — امثلة شتى

أهم المبادئ التى تسير عليها الأمم وتعتبر مدار التاريخ وعماد الحضارة المبادئ الدينية فلها من الشأن ما يجعلنا نفرد للكلام عليها فصلاً مستقلاً

كانت المبادئ الدينية على الدوام أهم عنصر فى حياة الأمم وهى لذلك أهم عنصر فى تاريخها فأكبر حوادث التاريخ التى أنتجت أعظم الآثار هو قيام الديانات وسقوطها وأول المسائل الأساسية فى الأزمان الغابرة وفى الأزمان الحاضرة المسائل الدينية ولو أن الانسانية رضيت بموت جميع آلهتها لكان هذا

الحادث أعظم الحوادث التى تمت فوق وجه الأرض منذ ظهرت المدنيات الأولى

لا ينبغى لنا أن ننسى أن جميع النظامات السياسية والتدبيرات الاجتماعية قامت منذ بداية التاريخ على معتقدات دينية وأن الآلهة هى التى لعبت أكبر دور فى الحياة الإنسانية وأن الدين أسرع مؤثر فى الأخلاق لا يدانيه مؤثر اللهم إلا الحب والحب دين إلا أنه دين ذاتى غير دائم وإذا أردت أن تعرف على أى حال تكون الأمة التى اجتاحها خيالها فانظر إلى فتوحات العرب والحروب الصليبية والاضطهاد الاندلسى وحال انكلترا أيام (البوريتيين) و (سانت بارتلمى) فى فرنسا وحروب الثورة الفرنساوية إلا أن للأوهام سحراً مستمراً شديد التأثير يتغير به المزاج العقلى تغيراً كلياً خلق الإنسان الآلهة ولكنها ما لبثت أن استعبدته وإنها بنت الأمل لا بنت الخوف كما وصفها (لوقريس) لذلك كان تأثيرها سرمدياً لقد كان من تأثيرها فيه أن جعلت عقله متشبعاً بفكرة السعادة فامتازت بذلك على كل مؤثر سواها وقصرت الفلسفة عن إدراك هذه الغاية حتى الآن

نتيجة كل حضارة ان لم تقل غايتها وكل فلسفة وكل دين تكوين حالات عقلية خاصة بعضها يقتضى السعادة وبعضها لا يقتضيها وترجع السعادة الى أحوال النفس أكثر مما ترجع

الى الاحوال الخارجة عنها فلربما كانت الضحايا فوق مواقدها أسعد من قاتليها وكم فالح أرض بيديه يقصم الكسرة معروكة بالسوم أسعد بكثير من موسر متدفق الثروة تكاثفت حوله الهموم

ومن دواعي الاسف أن الحضارة في هذا الزمان خلقت للانسان جمعاً من الحاجات ولم تعطه وسائل دفعها فتولد من ذلك عدم الرضاء في النفوس قالوا الحضارة بنت الرقي نعم وهي أم الاشتراكية وأم الفوضى وهما صوتان مريعان تصيح بهما جموع فقدت ايمانها فاستولى اليأس على قلوبها أين حال الاوروبي الذي تولاه القلق وهاجت أعصابه وأصبح غير راض بحظه من حال الشرقي الراضي بما قدر له انما الفرق بينهما في حالة النفس دون سواها وانما يغير الامة من يغير من تصورها ويحملها بفكر وتعمل غير ما عملت

يجب على الهيئة أن تسعى في ايجاد حال عقلية يكون فيها الفرد سعيداً والا فأجل الامة قصير فما قامت الامم حتى الساعة الا متكئة على خيال فيه قوة اجتذاب النفوس وما سقطت واحدة منها الا بزوال سلطان هذا الخيال

من أكبر خطأ هذا الزمان اعتقاد الناس أن النفس تجد السعادة في الاشياء الخارجة عنها فإن السعادة فينا ونحن الذين نوجدها وشد ما كانت بعيدة عنا اذا هدمنا خيال العصر

الماضى فصرنا نرى أنه لاحياة لنا من بعد هذا الخيال وانا اذا لم نوفق الى الاستعاضة عنه فانا هالكون

أكبر المحسنين لبنى الانسان الذين يجب على الامم أن تقيم لهم أفخم التماثيل من الذهب الوهاج هم أولئك السحرة القادرون الذين خلقوا لها الخيالات أولئك يولدون أحياناً بين البشر ولكنهم لايولدون الا قليلا أقاموا أمام سيول الآمال الفانية — وهى الحقائق التى لاقدرة للانسان على معرفة غيرها وفى وجه هذه الدنيا العبوس الجامده — حجاباً من الاوهام القوية فسروا عن الانسانية وستروا مافى الحياة من غصاصة ومضض وخلقوا جنات النعيم فبيط بها الرجاء وتوالت الاحلام

واذا رجعنا الى الجهة السياسية علمنا أيضاً كيف كان تأثير المعتقدات شديداً والسبب فى قوة الدين العظيمة كونه العامل الوحيد الذى تتوحد به وقتاً ما منافع الأمة ومشاعرها وأفكارها فيقوم المبدأ الدينى بذلك دفعة واحدة مقام غيره من العناصر التى يتكون منها روح الأمة والتى لاتنتج هذه النتيجة الا اذا أزمنت وتم نضجها بالوراثة نعم لايتغير مزاج الأمة المعلى بمجرد استيلاء دين على قلبها غير أن جميع القوى تتجه نحو غاية واحدة هى الانتصار للمعتقد الجديد وفى ذلك سر قوتها العظمى لذلك نجد أن قيام الامم بأعظم الاعمال كان فى عصر هذا التطور الوقتى أعنى عصر

تدينها وتأسيس أكبر الممالك التي أدهشت العالم كان في عصر تدينها كذا اتحدت بعض قبائل العرب بفكرة محمد (صلى الله عليه وسلم) فاستطاعوا قهر أمم كانت لا تعرف منهم حتى الاسماء وشادوا تلك الدولة الكبرى

والذي يجب الالتفات اليه قوة تمكن المعتقد من النفوس لا حقيقة هذا المعتقد لا فرق بين أن تكون الدعوة للاله (مولوخ) أو لغيره ممن هو أعرق في الهمجية بل ربما عظم نفوذ المعبودات كان قاسي القلب ومن المستبدين لأن الآلهة التي تغالت في التسامح واللين لا تشد عزائم عبادها ومن أجل ذلك ساد أتباع محمد بتشدده وامتد سلطانهم على قسم كبير من الدنيا زمناً طويلا ولا تزال لهم خشية في النفوس وأما أتباع (بوذا) الهادي فانهم لم يأتوا عملا باقياً وقد نسيهم التاريخ

وعليه يتضح أنه كان للدين شأن كبير في سياسة الأمم لانه هو العامل الوحيد سريع التأثير في أخلاقها نعم ان الآلهة ليسوا خالدين ولكن المبدأ الديني باق لا يزول يغفو زماناً ثم ينشط متى ظهر رب جديد وهو الذي استطاعت به فرنسا وحدها منذ قرن أن تقاوم أوربا كلها فعرف البشر مرة أخرى درجة تأثير المعتقدات الدينية لأن الافكار التي امتلكت العقول في ذلك العصر كانت في الحقيقة ديناً جديداً نفخ في الأمة من روحه

فأنشئها لكن الآلهة التي وردت من خلال تلك المعتقدات كانت لطبيعة المادة فلم تدم الا قليلا على أن سلطانها مدة وجودها كان سلطاناً كبيراً

بعد ذلك نقول ان قدرة الديانات على تغيير روح الأمم قدرة عابية فقلما تدوم المعتقدات على قوتها الأولى ربما يكفى لتغيير الخلق تغييراً تاماً سببه أن قوة الأحلام لاتلبث أن يفتر ويرجع المأخوذ بسكرتها بعض الرجوع الى اليقظة فتظهر حقيقة الخلق العتيق

يظهر على الدوام خلق الأمة حتى وسلطان الدين فى منتهى شدته فتراه فى الصبغة التى اصطبغ بها الدين عند الأمة التى اعتنقته وفى المظاهر التى تنشأ عنه انظر الى الفرق العظيم بين المعتقد الواحد فى انكلترا واسبانيا وفرنسا تجد أنه كان من المستحيل ظهور (البروتستنتية) فى اسبانيا ولا أن ترضى انكلترة باقامة الاضطهاد (محكمة التعذيب) بين ربوعها بل تأمل حال الامم التى دانت بالبروتستنتية تظهر لك أخلاقها الاساسية الاولى بادية عليها وأنها بالرغم من اقتباسها معتقدها لاتزال محتفظة بمميزات مزاجها العقلى أعنى الاستقلال ومضاء العزيمة وتدبر الأمور قبل الأخذ بها وإباء الخضوع والاستدلال لسيد يصدر فى أمره عن الهوى

يتولد تاريخ الأمم السياسي والأدبي والفني من معتقداتها إلا أن هذه كما تؤثر في الخلق تتأثر أيضاً به فمفاتيح حياة الأمة خلقها ودينها والأول دائم من حيث صفاته الأولى وعدم تغيره هو السبب في وحدة تاريخ كل أمة واطراده أما المعتقدات فقابلة للتغير وتغيرها هو السبب في أن التاريخ يحكي كثيراً من الانقلابات في الأمم

أقل تغيير يطرأ على معتقدات الامة يجر وراءه تغييرات عدة بعضها أثر بعض وقد قدمنا في الفصل السابق أن أهل فرنسا في القرن الثامن عشر كانوا يخالفون جداً في الظاهر أهلها في القرن السابع عشر وما السبب في هذا الا أن العقل كان انتقل بين قرن وقرن من اللاهوت الى العلم وعارض التقليد بالنظر والحقيقة النقلية بالحقيقة العقلية فكان هذا التغير في التصورات كافياً وحده لإحداث التفاوت بين عصر وعصر وإذا اقتفينا آثاره رأينا أن الثورة الفرنساوية والحوادث التي تلتها ولا تزال موجودة فينا انما هي نتيجة لازمة لتطور حصل في المعتقدات

اليوم تميل الأمم القديمة الى السقوط فهي تهتز من الوهن ونظاماتها تتداعى واحداً إثر واحد وعلة ذلك فقدانها كل يوم

شيئاً من ايمانها الذى قامت عليه حتى الآن فاذا فقدته كله قامت حتماً مقامه حضارة جديدة مؤسسة على معتقد جديد لأن التاريخ يدلنا على أن الأمم لا تحيى طويلا بعد اختفاء معبوداتها وأن الحضارات التى جاءت مع تلك المعبودات تذهب بذهابها ألا لا شىء أفعل فى التخريب من أثر معبود يموت

الفصل الثالث

شأن عظماء الرجال فى تاريخ الأمم

فى ان الرقى العظيم تم فى الامم على يد نفر قليل من اهل العقول السامية
حقيقة شأن هؤلاء — فى انهم يمثلون جميع مجهودات شعوبهم — امثلة
منتزعة من الاكتشافات العظيمة — شأن عظماء الرجال فى السياسة — فى انهم
موضع حلول الخيال السائد على امتهم — تأثير عظماء المتهوسين — فى أن كبار
المكتشفين يبدلون حضارة الامة — فى ان المتعصبين والمتهوسين يخلقون التاريخ

عند ما بحثنا فى تقسيم الأمم وبيان الفروق التى يختلف بها بعضها عن البعض الآخر اتضح لنا أن الفارق بين الاوروبيين وبين الشرقيين هو اختصاص أولئك بفريق راق من العظماء دون هؤلاء فلنأت على طرف من شأن هؤلاء العظماء

تجتمع مقدرة الشعب كلها فى هذه الطائفة الصغيرة المؤلفة من الرجال الممتازين أولئك الذين إذا أخرجناهم من كل جيل سقط مستوى الأمة العقلى سقوطاً كبيراً وإلى هذه الطائفة يرجع الفضل فى الرقى الذى وصلت اليه العلوم والفنون والصناعة وبالجملة جميع فروع الحضارة والتاريخ يدلنا على أنا مدينون لهذا

الرهط بكل ذلك ومع كون المجموع منتفعاً بهذا الرقي فان الناس لا يرتاحون عادة للتفوق عليهم وان كان النبوغ آتياً من بينهم لذلك ذهب عظماء المفكرين وكبار المكتشفين ضحية عصب قومهم في غالب الأحيان وما درى القوم أن غرس الأجيال الماضية وثمرة ماضيها إنما تنمو في بستان تلك العقول النابغة التي هي قطوفها الدانية أولئك هم مجد الأمم وكل فرد من أفرادها وان صغر يفخر بهم ويفتخر بنشأتهم لانهم لا يوجدون اتفاقاً ولا معجزة من المعجزات ولكنهم ثمرة الماضي الطويل فيهم تمثل عظمة عصرهم ومكانة أمتهم وكل ما ساعد على انبثاق أزهارهم فانما يساعد على انتشار الرقي الذي تستفيد منه الإنسانية لكنا إذا تركنا أضغاث أحلامنا بالمساواة العامة تمشي بصائرنا كنا أول ضحاياها فما المساواة إلاّ بين المنحطين وهي مطمح آمال صعاليك العقول يحلمون بهم وهم بأحلامهم من التعساء إنما صدقت تلك الأحلام عند المتوحشين أما الأمم الراقية فلا سبيل للتساوي بين أفرادها إلاّ اذا تدرجت في اسقاط كل رفيع فيها مما تعتز به مكانتها حتى يهبط الى أسفل مستو فيها

على أن شأن العظماء ليس على قدر ما هو شائع عند الناس مهما بلغ أثره في رقي الحضارة لانه ينحصر كما قدمنا في تمثيل مجهودات الامة كلها فاكتشافات المكتشفين ثمرة اكتشافات

كثيرة سابقة وهم إنما يقيمون بناء من أحجار هندمها المتقدمون على مدى الزمان ولكن المؤرخين ميالون بطبيعتهم الى تبسيط الاشياء تراهم يلصقون بكل اكتشاف اسماً من الاسماء مع أنه لا يوجد بين الاكتشافات الكبيرة التي غيرت وجه البسيطة كالمطبعة والبارود والبخار والتلغراف الكهربائي ما تجوز نسبته إلى رجل واحد ومن تأمل في تاريخ هذه الاكتشافات وجدها ثمرة أتعاب سابقة والمكتشف الاخير إنما هو شرفة ذلك البناء

كان العالم (غاليلي) أول من لاحظ تساوي تموجات المصباح المعلق في الفضاء من حيث الزمن فمهد الطريق بذلك لاكتشاف الساعات المضبوطة انضباطاً تاماً (كرونومتر) ومن هنا استطاع الملاحون ايجاد ما يهتدون به في طريقهم فوق الماء وبارود المدافع مأخوذ من (النار الاغريقية) المحولة تحويلاً بطيئاً والآلة البخارية ثمرة اكتشافات عديدة اقتضى كل واحد منها مجهودات كثيرة ولو أن رجلاً من الاغريق أعطي فوق ذكاء (أرشميد) مائة مرة لما توصل إلى اختراع قاطرة السكة الحديدية ولو استطاع اكتشافها لما استفاد منها إذ كان يعوزه في إبرازها إلى عالم التنفيذ أن يتقدم علم (الميخانيقا) إلى درجة لم تصلها إلا بعد ألفي عام

يخيل للناس أن عظماء السياسيين غير مرتبطين برباط مع

الماضي ولكنهم في الحقيقة ليسوا أقل ارتباطاً به من المخترعين والمكتشفين ولقد طاش نظر بعض الكتّاب مثل (هيجيل) و (كوزان) و (كارليل) وغيرهم لا بهارهم بنبساء أولئك العظماء الذين يقلبون الأمم ذات اليمين وذات الشمال ويغيرون حياتها السياسية فأرادوا أن ينزلوهم منازل الآلهة الذين لهم وحدهم سلطان على مصير الأمم لا شك أن في استطاعة أولئك العظماء تعكير تطوّر الامة لكن مقدورهم لا يصل الى تغيير مجرى حياتها وليس في استطاعة عقل كعقل (كرمويل) أو (نابليون) أن يأتي بعمل مثل هذا ورب فاتح عظيم يهدم المدائن بالحديد والنار ويبيد الرجال ويخرب الممالك كما يحرق الطفل دار تحف مائة بكنوز الفنون الا أنه ينبغي أن لا تغترّ بهذه القوة الهادمة فنخطئ تقدير شأن أولئك العظماء إذ ليس لأثرهم بقاء إلا إذا عرفوا كيف يستخدمون مقدرتهم حيث تكون حاجات عصرهم كما فعل (قيصر) و (ريشليو) وحينئذٍ فالسبب الحقيقي في نجاحهم موجود قبلهم بزمن طويل ولو ظهر الرجلان قبل عصرهما بقرنين أو ثلاثة قرون لما أتيح للاول أن يخضع الجمهورية الرومانية العظيمة الى ارادة سيد قاهر ولا تمكن الثاني من ايجاد الوحدة الفرنساوية وعليه فكبراء السياسة الحقيقيون هم الذين يمثلون حاجات الامم التي اقترنت والحوادث التي أتم الزمان معداتها

ويرشدون إلى الطريق الذي يجب السير فيه وقد يجوز أن يكون هذا الطريق مجهولاً من الجميع ولكن الاقدار التي قضت بتطوُّر الامة كانت لا بد أن تدفع اليه الامم الى أحد أولئك القادرين موقتاً زمامها فمثل هؤلاء كمثل المكتشفين يمثلون ثمرات مجهودات طويلة سابقة

لا ينبغي أن نذهب إلى أبعد من ذلك في المقابلة بين طبقات عظماء الرجال فللمكتشفين شأن كبير في تطوُّر الحضارة المستقبل ولكن لا شأن لهم مباشرة في تاريخ الامة السياسي ذلك لانهم من مخترع المحراث الى مخترع التلغراف ومن بينهما من أصحاب المخترعات التي يتمتع بها الناس لم يكن لهم من الصفات الخلقية ما يمكنهم من اقامة دين أو افتتاح مملكة أعني أنهم لم يكن لهم من المواهب ما يستطيعون به تغيير التاريخ تغييراً باديًا وتجردهم من تلك الصفات آت من كونهم أهل تفكير وتدقيق والمفكر لا يجهل ما في المفكورات من الاشكال والتعقيد وعلمه هذا يؤثر في يقينه فيضعفه ومن جهة ثانية تراه لا عناية له بالاطماع إلا قليلاً لان الذي يستحق ذلك منها نادر فلا يحفل بواحد منها والخلاصة أن المكتشفين لا يغيرون الحضارة إلا مع الزمن وأما المتعصبون ذوو العقول الضيقة الممتازون بقوة الخلق وشدة الشهوة فهم الذين يقدرون على إقامة الأديان وتأسيس

الممالك وقلب نظام البشر هذا نطرس الراهب أقام صوته ألوف الالوف ورمى بهم نحو الشرق وهذا صوت محمد (صلى الله عليه وسلم) كان له قوة التأثير ما انتصر به على الدنيا القديمة الاعريقية الرومانية وراهب خامل الذكر مثل (لوثر) أقام أوروبا وقذفها فى بحر من النار والدماء لكن الجموع لا تسمع صوت (غاليلى) أو (نيوتن) والخلاصة أن علماء المكتشفين يخلون سير المدنية والمتعصبون والمتهوسون يخلقون التاريخ

ليس التاريخ كما يسطرونه إلا سرد الحوادث التى احتملها الإنسان ليخلق له خيالاً نعبده ثم يبيده وليس لمثل هذه الخيالات قيمة فى نظر العلم إلا كسراب الضياء فوق الرمال المتحركة فى البيداء

لكن المتهوسين الذين خلقوا هذا السراب هم الذين قلبوا العالم رأساً على عقب ولا يزالون يخضعون الناس لسلطانهم وهم فى القبور ولا يزالون يعملون فى أخلاق الأمم ومصيرها فلا ينبغى لنا أن نتجاهل شأنهم ثم لا ننسى أنهم ما قاموا بتلك الاعمال إلا لانهم مثلوا على غير علم خيال أممهم وعصورهم فلا حول لرجل فى تحريك أمة إلا اذا تمثل أحلامها تمثل موسى حاجة اليهود الى الخلاص بعد أن احتمرت فى قلوبهم مند سنين قضوها عبيداً ترهق أجسامهم سياط المصريين وأدرك (بوذا) و (عيسى)

تعاليم عصورهم فصوروا الرحمة والحنان بصورة دين وكان الناس يتشوقون منذ زمان الى رحمة وحنان يتحيان بهم من شقاء عام ووحد محمد الدين فألف بين قلوب قوم كان بعضهم لبعض عدواً وحسدى نابغة صار نابليون تمثل الرغبة فى المجد الحربى والزهو بنشر الثورة ذلك ما اشتهرت به فى عصره أمة طاف بها خمسة عشر عاماً أنحاء أوروبا وراء أغراض لم تكن الآ ضرباً من الجنون

ان قواد البشر هم الذين يمثلون مبادئ البشر ويعملون على نشرها وان شئت فقل قائد الناس مبادئهم ويتم النصر للمبادئ متى قام للدفاع عنها متهوسون ومؤمنون ولا عبرة بما اذا كانت على حق أو باطل بل ان التاريخ يعيد لنا أن أكثرها بطلاناً أكثرها أثراً فى فتنة الناس وحتى الآن لا نعلم أنه أصاب الدنيا انقلاب أو سقطت حضارة كان يظهر أنها خالدة أو قامت حضارة على أطلالها إلاّ اذا كان ذلك باسم مبادئ يحجل العقل منها وليست مملكة السموات هى التى هيئت لفقراء العقول كما جاء بتوكيده الإنجيل بل مملكة الارض على شريطة أن يكونوا من ذوى اليقين الذى يرفع الجبال الراسيات وعلى الفلاسفة الذين يقتلون الادهار فى هدم ما بناه المؤمنون فى يوم واحد أن يخروا لهم ساجدين فإنهم حلقة من سلسلة تلك القوى الخفية المهيمنة على

الكائنات وامد جاءوا بأعظم الحوادث التي حدثت في بطون التاريخ

جاءوا للناس بالأوهام والناس عاشوا بتلك الأوهام المجيمة الجذابة الباطلة وستبقى مصدر حياتهم في المستقبل فان قيل أنها طيف لا حقيقة له قلنا طيف وحب احترامه فبفضله عرف آباؤنا حلاوة الأمل فانطلقوا وراء تلك الاوهام انطلاق الشجاع أصابته جنة وأبعدونا من الهمجية الأولى وأوصلونا الى ما نحن فيه الآن كذلك كانت الأوهام أشد عوامل الحضارة تأثيراً الوهم هو الذي شاد الاهرام وغطى وجه مصر بصخر مصنوع مدى خمسة آلاف عام والوهم هو الذي بنى في القرون الوسطى تلك البيع الضخمة الهائلة ورمى بالعرب فوق الشرق للاستيلاء على أحد القبور والوهم هو الذي أسس أدياناً وان بها نصف البشر والوهم شاد أكبر الممالك وأباد أعظم الدول وهكذا بذلت الانسانية جل مجهودها وراء الخيال لا طلباً للحقيقة وما كان لها أن تصل الى أغراضها الوهمية ولكنها في سيرها حققت الرقي في كل معنى وما كانت تتطلب منه شيئاً

الباب الخامس

تحلل الخلق وسقوط الأمم

الفصل الأول

كيف تدل الحضارة فتموت

تحلل الأنواع النفسية — كيف تنعدم الكفاءة الوراثية في زمن قصير بعد ان احتاجت في تكونها الى دهر طويل — في أنه ينبغي للأمة زمن طويل لتبلغ ذروة الكمال الممكن وقد لا تحتاج الا الى زمن قصير لتنحط الى الدرك الاسفل — في ان أهم عوامل انحطاط الامة انحطاط خلقها — في أن طريقة انحلال المدنية واحدة عند جميع الأمم حتى الآن — في علامات الانحطاط البادية في بعض الأمم اللاتينية — في نمو حب الذات — في ضعف الهمة الذاتية والارادة — في انحطاط الخلق والآداب — في الشبيبة الحاضرة — فيما قد يكون للاشتراكية من التأثير — في أخطارها وقوتها — في أنها تعود الحضارة التي تمنى بها الى تطورات وحشية صرفة — في الأمم التي تحور انتصار الاشتراكية فيها

شأن الانواع النفسية في عدم الدوام شأن الانواع التشريحية أي الجسمانية لأن أحوال البيئة التي تقتضي وجودها لا تدوم مدى الدهر فاذا تغيرت تلك الاحوال لا تلبث عناصر المزاج العقلي التي كانت مرتكزة عليها أن تتضاءل حتى تنعدم فهناك

اذن نواميس طبيعية تحكم على خليات العقل كما تحكم على خليات الجسم وهى ظاهرة الاثر فى جميع الكائنات . ومن مقتضى تلك النواميس أن الزمن الذى يلزم لانعدام الاعضاء التى تتكون الذات منها أقصر جداً من الزمن المقتضى لتكوينها ذلك لأن العضو الذى لا يعمل يعدم خاصية العمل بلاتوان كعيون السمك التى تعيش فى المياه خلال الصخور يضعف نورها ويصير ذلك الضعف وراثياً مع الزمن واذا نظرنا الى حياة الانسان على قصرها وجدنا أن العضو الذى لم يتكون الا بعد أجيال كثيرة تتعدد الوراثة يشل سريعاً اذا بطل استعماله

ولا يشذ المزاج العقلى عن حكم هذه النواميس فالخلية المخية التى لا تعمل تفقد وظيفتها ومن هنا صح أن بعض الكفاآت العقلية التى تتكون على طول الزمن تزول فى وقت قصير فالشجاعة وقوة الاستنباط والعزيمة والاقدام وغيرها من صفات الخلق كلها بطيئة التكوين وهى سريعة الزوال اذا لم تجد محلا للعمل فيه ومن هنا يعلم السبب فى أن الأمة لا تنال قسطاً من الرقى الا بمرور العصور الطويلة وأنها قد تهوى الى الحضيض على عجل

واذا أمعنا النظر فى أسباب سقوط جميع الأمم التى يذكرها التاريخ بلا استثناء لا فرق فى ذلك بين الرومان أو العجم أو غير هؤلاء وهؤلاء وجدنا أن العامل القوى فى انحلالها تغير طرأ على

مراجها العقلى ترجع علته الى انحطاط الخلق ولست أعلم أن دولة واحـدة سقطت لانحطاط الذكاء فى قومها فطريقة انحـلال المدنيات واحدة حتى أن الانسان ليتساءل كما فعل أحد الشعراء ان كان التاريخ الذى امتلأت به المجلدات العديدة صفحات كثيرة أو هو فى الحقيقة صفحة متكررة

اذا بلغت الامة دروة الحضارة والقوة فأمست فى مأمن من غارة الجار ومالت الى التمتع بنعمة السلام والمعيشة الراضية التى هى بنت اليسر ماتت فضائلها الحربية وتجدد لها من الحاجات بقدر ماراد فى حضارتها وتمكن حب الذات من النفوس ولم يعد من همها الا سرعة التمتع بالخيرات التى نالتها على عجل فتنصرف الهمم عن الاشتغال بالمصالح العامة وتضيع فى الناس الفضائل التى كانت سبباً فى عظمة الأمة وحينئذ يغير عليها جارها من الأمم المتبربرة أو التى هى فى حكمها لأنه إن كان أقل منها حضارة فهو أشـد خيالا ثم يهـدم حضارتها ويقيم أطلالها حضارة أخرى ذلك ماجرى للرومانيين والفرس فانهم على ما كانوا عليـه من أحكام النظام شتت البربر شمل الدولة الاولى كما شتت العرب شمل الثانية ومن المحقق أن الذى أعوز المغلوب لم يكن هو العقل والذكاء بل أنه لامناسبة فى ذلك بين الغالب والمغلوب لان أرقى العقول وأكبر الفطن ظهرت فى روما وهى حبلى بفوحات

سقوطها أعنى فى عصر الامبراطرة الاول ففى ذلك الزمان نبغ أهل الفنون والادباء والعلماء والى ذلك العصر ترجع جميع الاعمال التى بنى عليها مجد تلك الامة الباذخ ولكنها كانت أضاعت العامل الأساسى الذى لا يقوم الذكاء مقامه مهما بلغ ألا وهو الخلق

كان للرومانيين الاولين حاجات قليلة وخيال قوى هو عظمة روما وكان هذا الخيال مستولياً على جميع القلوب وكل وطنى كان يفديه بالمال والنفس والعيال فلما صارت روما قطب دائرة الدنيا وأغنى مدينة فى العالم جعل الأجانب ينسلون اليها من كل حدب فنحتهم فى آخر الأمر لقب وطنيين وما كان لهم حظ الا التمتع بخيرها وما كان لهم عناية بعزها وعلو مكانتها أصبحت تلك المدينة الكبرى محشراً فى الخلائق من جميع الأجناس الا أنها لم تكن اذ ذاك روما وكانت تلوح عليها فى الظاهر علامات الحياة ولكنها كانت لفظت روحها منذ عهد بعيد

وهناك أسباب شبيهة بالتى سبقت تهدد بقاء حضارتنا الراقية ويزاد عليها أسباب جديدة آتية من التغير الذى طرأ على الافكار تأثير الاكتشافات العلمية العصرية فقد بدل العلم بأفكارنا الاولى أفكاراً أخرى وأفقد ما كان للمبادئ الاجتماعية الدينية من التأثير فى الناس وأزاح الستار للانسان فعلم مقدار دقة مكانه فى هذا الوجود وعلم أن الطبيعة غير شاعرة به فيها وفهم

بأن الذى كان يسميه حرية ليس إلا الجهل بأسباب الاسترقاق وأن شأنه فى الحياة الدنيا أن يكون عبداً بين مخالب الأقدار التى تدفعه بالقهر عنه وأيقن بأن الطبيعة لا تعرف تلك العاطفة التى يسميها الرحمة وأن الرق الذى وصلت اليه الانسانية لم تلده الطبيعة إلا بعامل التفاعل بين العناصر الكونية قويها يدق عنق ضعيفها. تلك أفكار شديدة الوقع يقف منها الدم جامداً فى عروقه وهى تخالف معتقدات آبائنا الذين كانوا بها فى عيشة راضية وقد ولدت فى النفوس شكوكا مزعجة وحلت على أهل العقول الصغيرة فوضى الأفكار الذى يحتار المرء فى هذا الزمان وعيرت تلك الشكوك أطوار الشبيبة المشتغلة بالآداب والفنون فغرست فيها جموداً مشوباً بالكآبة وذلك أفقدها الارادة ونزع منها المقدرة على الاهتمام بأى أمر وجعلها تعبد المنافع الذاتية الوقتية دون سواها

لاحظ أحد كبار الكتّاب فى هذا العصر ملاحظة أصاب بها الواقع وهو (أن الحس النسبى متسلط على ملكة التصور فى هذا الزمان) وأراد أحد وزراء المعارف أن يشرح هذه المشاهدة فى خطابة ألقاها حديثاً فقال وملامحه تدل على سروره من نفسه « ان حلول المبادئ النسبية محل المبادئ الكلية فى جميع معارف الانسان هى أكبر الفتوحات التى أتانا العلم بها » على أن هذا

الفتح قديم فى الحقيقة لا جديد فملاسفة الهند كانوا يقولون به منذ عشرة قرون وليس مما يسرنا رجوعه عندنا مرة ثانية لأن الخطر كل الخطر ناشئ على الأخص من فقدان التصديق بالمعتقدات التى كانت حياة الأمم قائمة عليها وأنى لا أعرف من أول التاريخ حتى الآن حضارة أو نظاما أو معتقدا يرجع فيه الى مبادئ ليس لها إلا قيمة نسبية فان قيل أن المستقبل فى الظاهر لمذاهب الاشتراكيين التى يردها العقل فالسبب فى ذلك أن تلك المذاهب هى التى يدعى القائمون بنشرها أنها مشتملة على حقيقة كلية ومن عادات الجموع أنها تلتف حول الذين يدعونها الى الحقائق المطلقة ولا تعتقد عن عدائهم ولا يكون الرجل سياسيا إلا إذا سبر روح الجموع ووقف على حقيقة أخلاقها وترك التجريدات الفلسفية ظهريا فان الأشياء لا تتغير إلا قليلا وانما الذى يتغير صورها والفطن هو الذى يستخدم تلك الصور

ثم ليس فى وسعنا أن نعرف من حقيقة الوجود إلا ما ظهر أعنى حالات نفسية قيمتها نسبية بالضرورة لكن اذا نظرنا الى الجهة الاجتماعية جاز لنا أن نقول بأن لكل عصر ولكل أمة أحوالا وآدابا ونظامات ذات معنى كلى ولا بقاء لتلك الأمة إلا بذلك كله فاذا قام الجدل عليه وتطرق الشك فيه الى العقول فقد اقتربت ساعة الامة لا محالة

هذه حقائق ليس هناك حرج من تقريرها فامن علم ينكرها والضرر كل الضرر فى تقرير مايخالفها أما مذهب العدمية الفلسفية الذى يتصدى لبثه بعض أهل الرأى فى صمماء العقول فانه يفضى بهؤلاء الى اعتقاد أن نظام الهيئة الاجتماعية الحاضر نظام جائر لا رحمة فيه البتة وأن طبقات الناس التى فطروا عليها ضرب من الهزء والسخرية وتغرس فى قلوبهم بغض ما هم عليه من كل شىء وتقودهم مباشرة الى الاشتراكية والفوضى وساسة هذا الزمان شديدو الاعتقاد بتأثير النظامات ضعيفوا الايمان بالمبادئ مع أن العلم تكشف القناع لهم عن اشتقاق الاولى من الثانية وأن بقاء النتائج مشروط على الدوام ببقاء المقدمات فالمبادئ عبارة عما فى الكائنات فى العوامل الباطنة واذا انهدمت تهدمت بانعدامها الأسس الخفية التى ترتكز عليها النظامات والحضارة وكذلك كان أشد أوقات الامم محنة هو الزمان الذى ذهبت فيه مبادئها الى حيث ذهبت معتقداتها

واذا انتقلنا من المقدمات الى النتائج وجب علينا التسليم بأن علامات الانحطاط أصبحت بادية فى معظم الامم الاوروباوية وعلى الاخص فى الامم المعبر عنها باللاتينية سواء جاءها هذا الوصف من حيث الاصل أو من حيث التقاليد والتربية فتراها تفقد كل

يوم شيئاً من قوة الاستنباط والهمة والادارة والكفاءة للعمل وتكاد تكتفي لسد حاجاتها المادية وهذه كل يوم في ازدياد. أما العائلة فصائرة الى الانحلال وقوى المجتمع آخذة في التمزق. والغضب والحرج ينتشران في جميع الطبقات من أحقر الفقراء الى أكبر الاغنياء وأشبه الانسان في هذا الزمان مركباً فقدت ربانها فهامت كما تشاء الأقدار أي تسيرها الرياح. وأخذ يضرب في أودية المراع التي كانت تملأها الآلهة يحملها العلوم قناعاً صمصماً فلما أضاع الانسان ربه فقد الرجاء وقويت في الجموع حاسة التأثر وصارت سريعة التحول الى الدرجة القصوى ولم يعد أمامها من سد يرد جماحها وهي تموج بلا انقطاع منتقلة من جنون الفوضى الى جنون الاستبداد مجرد القول يثيرها ولها كل يوم معبود جديد تسجد له في الصباح وتعدمه في المساء يخيل لك أنها تجد في طلب الحرية وهي في الحقيقة تطاردها وتسأل الحكومة أن تضع في أعناقها سلاسل وأغلالا تقدم الطاعة العمياء لاحقر شيعتها وأضيق المستبدين نظراً والقوالون الذين يظنون أنهم يقودونها وهم انما يسيرون خلفها لايفرقون بين من ماكه الضجر وهاجت أعصابه فطلب كل يوم سيداً جديداً وبين روح الاستقلال الذي يأبى الخضوع لسيد مهما كان الحكومة على اختلاف مسمياتها هي المعبود الذي تستمله الاحزاب كلها يطلبون منه

كل يوم قيداً جديداً وحماية تريد فى ثقل حملها على الناس يرعون اليها أن تحيط الامة فى دقائق الاعمال وحلائلها سطامات أشد من سطامات البيرسطيين وأكثر استبداداً وترى الشبيبة كل يوم مائلة عن الاعمال التى تقتضى التعقل وقوة الاستنباط والهمة والمجهود الذاتى والارادة تخرج من التبعة وإن صعرت وتكتفى بالارواء فى وظائف الحكومة الدنيا والتجار يجهلون طريق الاستعمار والذين فى المستعمرات هم الموظفون [1] واستعاض رجال السياسة الهمة والعمل بمناقشات شخصية يرتاع الانسان من تجردها عن المعنى كما استعاضت الجموع تيك الصمين بالاندفاع أو الغضب الذى يغيب مع شمس يومه وحل محلهما فى المتعلمين وجدان تبلله دموع العجز وقد اختلطت فيه صور الاشياء ثم

(١) انقل هنا عن جريدة (السيكل) نبذة من خطاب الفاه موسيو (اتيين) وكيل نظارة المستعمرات فى مجلس النواب بتاريخ ٧ نوفمبر سنة ١٨٩٠ قال «بلغ سكان (قوشنشين) ٠٠٠و٠٠٨و١ نسمة منها ٦٠٠و١ من الفرنساويين منهم ٢٠٠و١ موظفون وتحكمها مجلس ينتخبه هؤلاء ولها نائب فى مجلس الشورى أفهل ترجون أن لا ينتشر الفوضى فى تلك البلاد (صحيح وصحك من أماكن كثيرة) أتعلمون نتائج هذا التدبير وأنه نجم عنه أن الميزانية مع أنها سقطت الى ٢٢ مليونا تبلغ الادارة منها نسعة ملايين وقد كنت عمدت فى سنة ١٨٧٧ الى الاقلال من الموظفين فانقصت المال المخصص لهم بمقدار ٠٠٠و٥٠٠و٣ فرنك وكان ذلك فى شهر اكتوبر وفى شهر ديسمبر سقطت الوزارة التى كنت منها وفى شهر مارس كان الذين أقصيتهم من الخدمة عادوا كلهم الى وظائفهم»

أقوال فاترة يندبون بها شقاء هذا الوجود وأني دنوت وجدت حب الذات بالغاً حده وأمة هذه حالها لا يكون للفرد منها هم إلا بذاته وهنالك تلقي الضمائر سلاحها وتنحط درجة الآداب العامة الى أن تزول شيئاً فشيئاً (١) ويفقد المرء كل قدرة على قياد

---

(١) يعظم خطر انحطاط الآداب اذا نزل ببعض الطبقات كطائفة القضاة والموثقين الذين كانوا قديماً يمتازون بالعفة امتياز الجندي بشجاعته وقد سقطت آداب الموثقين في هذا العصر الى درجة سحيقة فان الاحصاء الرسمي يدل على أن نسبة المتهمين منهم بلغت ٤٣ في كل ١٠٠٠٠ مع أن نسبة المتهمين في الامة كلها لا تزيد عن واحد في مثل ذلك العدد وقرأت في الجريدة الرسمية الصادرة بتاريخ ٣١ يناير سنة ١٨٩٠ النبذة الآتية من تقرير رفعه ناظر الحقانية الى رئيس الجمهورية قال « زادت المصائب التي أقلقت الأمة منذ سنة ١٨٤٠ حتى اضطر أحد سلفائي سنة ١٨٧٦ الى لفت النيابة لحالة الموثقين التفاتاً خاصاً لأن الرفت والمصائب التي كانت تقع في ذلك الحين احدثت ضجة عظيمة لم يعهد من قبل فزاد عدد هذه الوقائع المجرمة من (٣١) سنة ١٨٨٢ الى (٤١) سنة ١٨٨٣ الى (٥٤) سنة ١٨٨٤ الى (٧١) سنة ١٨٨٦ وبلغ مجموع ما اختلسه الموثقون بين سنة ١٨٨٠ وسنة ١٨٨٦ اثنين وستين مليونا وفي سنة ١٨٨٩ أحيلت وظائف مائة وثلاثة موثقين بعضهم بالعزل والبعض باجباره على ترك وظيفته » واذا ضممنا الى هذه الحوادث سقوط المشروعات المالية الكبيرة مثل بنك (الكنتوار ديسكونت) وبنك الخصم والتوفير وبناما وغيرها وجب علينا الاقرار بأن للاشتراكيين بعض العذر في سخطهم على آداب الطبقات التي تدير شؤون الامة ومن نكد الحظ أن هذا الانحطاط الأدبي باد في جميع الأمم اللاتينية كما تدل عليه فضيحة البنوك الرسمية في ايطاليا حيث ظهر فيها أن أرفع رجال السياسة كانوا يسرقون الاموال بغير حساب ثم افلاس (البرتغال) والحالة المالية المعيبة الجارية

نفسه فلا يعود يضبط ميوله ولم يسد نفسه سادغيره عليه

من الصعب تغيير هذا الحال اذ يجب علينا قبل كل شيء أن نغير طريقة تربيتنا اللاتينية المحزنة فانها تجردنا من قوة الاستنباط ومن كل همة إن كانت الوراثة تركت فينا أثراً منها ذكر ثم هي تقتل ملكة الاستقلال العقلي لأنها لاتبقى للشبيبة مطمحاً الا المسابقة في الامتحانات وذلك أمر ممقوت لايقتضي الا اجهاد الحافظة ونتيجته أن يتولى جميع الشؤون في الأمة أناس تنحصر أهليتهم في الاستسلام الى التقليد وهم لذلك أقل العاملين جدارة بولاية الاعمال التي تطلب الهمة الذاتية والاقدام زار (جيرو) المدارس الانكليزية فقال له بعض كبار المعلمين « انى أحاول أن أصب شيئاً من الحديد في روح التلاميذ » فأين نرى في الأمم اللاتينية معلمين ونظامات تعليم تؤدى الى مثل هذا الخيال . ولعل النظام العسكري يحققه وعلى كل حال فهو وحده الوسيلة اليه فأهم الشروط التى تلزم لنهوض الأمم المائلة الى السقوط تعميم نظام الجندية وجعله قاسياً جداً وأن تكون الأمة على الدوام مهددة بحروب طاحنة

تلاقى الأمم اللاتينية صعوبة في البقاء تحت ظل شرائع

في اسبانيا وايطاليا والسقوط العميق الذى وقعت فيه الجمهوريات اللاتينية في أمريكا كل ذلك يثبت أنه قد اصاب خلق بعض الأمم وآدابها مرض لادواء له وأن شأنهم في الوجود مشرف على الزوال

حرة بعيدة عن الاستبداد بعدها عن الفوضى . وتلك الصعوبة آتية من انحطاط الخلق العام وفقدان أفراد الامة ملكة ضبط نفوسهم وانصرافهم عن المرافق العامة الى حب الذات ومن السهل أن يدرك المتأمل بعض الجموع مثل هذه الشرائع لأن الجموع ميالة الى الحكم القيصرى رجاء أن ينيلها المساواة فى التسخير لا فى الحرية التى لا تكاد تأنه بها ولكن الذى يصعب ادراكه نفور الطبقات المستنيرة من النظامات الحرة اللهم إلا إذا حملناه على ما ورثناه عن آبائنا الأولين مع أن التنوع فى كل معنى وعلى الاخص رقى المدارك لا يجد جوا يتسع فيه أصفى من جو هذه النظامات ولعل العيب الوحيد فيها عند طلاب المساواة على كل حال هو صلاحيتها لتكوين طوائف عقلية ممتازة ذات قوة عظمى

وأما أشد النظامات عبثا بالأخلاق وبالعقول فهو النظام القيصرى على اختلاف أنواعه ولا فضل له الا أنه يسوى بين جميع الناس فى انحطاط النفس والهوان فى المذلة وهو أليق النظامات بالامم الهاوية الى السقوط لذلك ترجع اليه ما وجدت الى الرجوع سبيلاً ونهجه لناس قائد أياً كان يجرها الى تلك الهاوية ومتى وصلت الأمة الى هذا الدور فقد تولى زمامها ودنا سقوطها

عهد التاريخ بالقيصرية أنها تظهر فى الحضارة ابان نهوضها وابان سقوطها وهى الآن تدخل فى تطور ظاهر للعيان حيث

تبدو لنا باسم الاشتراكية والاشتراكية فناء الفرد فى الدولة بل هى أشدّ من القيصرية لأن أكبر المستبدين عتوًّا يخشى العاقبة ولكن حكومة الجمع لا سبيل لأحدها بتبعة وان عظمت

الاشتراكية فى عصرنا أكبر الأخطار التى تهدد الأمم الأوروبية فى وجودها وهى لا محالة مجهزة عليها فى سقوطها بعد أن عملت فيها العوامل الأخرى وقد تنقضى بسببها الحضارات الغربية

ولكى تقف على مقدار الخطر الذى ينجم عن هذا المذهب وعلى شدة تأثيره انظر الى قوة استخلاص النفوس اليه لا الى التعاليم التى جاء بها فكأنى به وقد أصبح الدين الجديد لكل من شقت عليه الحياة وشعر بوقر الاحوال الاقتصادية الناشئة عن حضارة هذا الزمان وأولئك جموع لا تحصى وسيملأ هذا المذهب السموات بعد أن أمست خالية ويقوم فى نفوس الذين ضعفوا عن احتمال الحياة بلا خيال مقام الجنة التى كانوا يرونها خلال نوافذ الجوامع والصوامع عشاق هذا الدين القادم كل يوم فى ازدياد وعما قريب تظهر ضحاياه وحينئذ يصير أحد المعتقدات الدينية التى تهب الامم لصوتها والتى تملك القلوب ملكاً مطلقاً

أما كون مذهب الاشتراكية يفضى بالامة الى أخس درجات

الاسترقاق ويقتل فى نفوس من خضعوا لحكمه كل همة وكل استقلال فذلك مما لا جدال فيه غير أنه لا يعرف ذلك الا علماء النفس الواقفون على أحوال الحياة الا أنه بعيد عن مخيلات الجموع لانها لا تسلم بمثل هذه الادلة . والادلة التى تقنع بها لا تأتى من طريق العقل

وأما كون هذا المذهب بعيداً عن التسليم به من كل من له أدنى ذوق سليم فهو أيضاً مما لا ينكره أحد الا أن المذاهب الدينية التى ملكت قيادنا مدى الدهور حتى الآن كانت بعيدة أيضاً عن كل ذوق سليم وما كان ذلك مانعاً من خضوع أكبر العقول لسلطانها ان الإنسان لا يصغى فى المعتقدات لغير شعوره اللاشعورى وللشعور اللاشعورى دائرة لا محل للعقل بين محتوياتها

وعليه فلا مناص للامم الاوروباوية من الرضوخ لدور الاشتراكية مهما احتوى من خطر عملاً بطبيعة المراح العقلى الذى خلقه الزمان فيها وسندخل به فى آخر دور من أدوار الانحطاط لانه يهبط بالحضارة الى الدرك الاسفل ويمهد السبيل لغارة البربر التى تهددنا بالخراب

واذا استثنينا الامة الروسية التى هى أمة أسيوية من الجهة النفسية أكثر منها أوروبية لا نرى فى أوروبا غير الانكليز لهم

عزيمة كبيرة ومعتقدات ثابتة وتحلق بعقل الى الاستقلال بجميع من سبيل الدين الجديد . أما ألمانيا الجديدة فانها ستكون من أول ضحاياه بالرغم من مخايل الرقي التي تظهر عليها بدليل نجاح الطوائف الاشتراكية المنتشرة في ربوعها . ومن المحقق أن الاشتراكية التي تفضي الى حرامها ستلبس ثوبا علميا خشنا قد يليق بأمة تصورية يتعذر وجودها في بني الانسان ولكن المولود العقلي الأخير سيكون أشد تعصباً وأكبر قوة من اخوته السابقين والمانيا أكثر الأمم استعداداً لقبوله فلها فاقت على الكل في فقدان ملكة الاستنباط والاستقلال وعادة حكم الأمة نفسها (١)

أما الروسيا فانها كانت الى عهد قريب على نظام (المير) أعنى نظام الاشتراكية المعروفة عند الأمم المطرية وهو أكمل صور الاشتراكية بل هي لم تخلص منه تماماً . ولا يمكن أن تفكر في الرجوع الى تلك الحال المنحطة فلها مستقبل آخر . إذ لا شبهة في أنها هي التي ستسوق الجموع الحربية على الأمم الاوروبية لتهصم حضارتها بعد أن تكون الحروب الاقتصادية ومذاهب الاشتراكيه مهدت لها السبيل

إلا أن هذه الساعة لم تأت بعد ولا نزال بيننا وبينها بعض

---

(١) أكثر الكتاب الالمانيين موافقون كل الموافقة على هذا جاء في كتاب

المراحل على ان فى الاشتراكية من شدة العسف يمنع من بقائها وستجعل الناس يترحمون على عصر (تيبير) و (كاليجولا) إنا لنعجب كيف احتمل الرومانيون مظالم هذين الجبارين وأمثالهما . ولكن العجب يزول متى عرفنا أنهم كانوا قطعوا أدوار الحروب الاجتماعية والاهلية وقاسوا أنواع الحرمان فى البؤس حتى فقدوا حلقهم ورأوا فى أولئك الظالمين آخر وسيلة للسلامة التى كانوا يرجونها واحتملوا منهم كل حيف لانهم ما كانوا يعرفون كيف يستعيضونهم بغيرهم والواقع أنهم لم يجدوا بديلا عنهم بعد زوالهم بل جرفهم سيل البربر وحطم مدنيتهم تلك كانت عاقبة دولة الرومان وتلك دورة التاريخ فى الزمان

موسيو (ريجلر) الاستاذ فى كلية (استراسبورج) اذا الميل العام فى انكلترا الى حكومة الامة نفسها فان التعويل على الحكومة هو ما تختاره الامة الالمانية فنحن أمة وضعت تحت الوصاية منذ دهر طويل أضف الى ذلك أن يد (بسمارك) القوية أفقدتنا مدى العشرين سنة الماضية ملكة الاستنباط والشعور بالمنعة وان كانت جعلتنا فى مأمن مما كنا نخاف ومن أجله نلجأ الى الحكومة فى كل حادث جلل بل فى الحوادث الصغيرة أيضاً ونكل كل شىء لعنايتها) اه المؤلف

وكأنى بالمؤلف ينزل مشاعر قومه منزلة الواقع وكأنى بموسيو ايجلر يشجع قومه ويستنهضهم الى أبعد ما وصلوا اليه فالظاهر للعيان أن الالمان أمة جد واقدام وهمة واستنباط ومثابرة ورقى مستمر

الفصل الثانى

خلاصة عامة

وعدنا فى مقدمة هذا الكتاب بأنه موجز لخصنا فيه ما كتبناه فى تاريخ حضارات الامم فكل فصل من فصوله بمثابة خلاصة للمؤلف سابق وعليه فمن الصعب تلخيص هذا التلخيص ولكنى سأحاول ذلك لفائدة القراء الذين يعوزهم فراغ الوقت وأقدم لهم المبادئ الاساسية التى تشتمل عليها فلسفة هذا الكتاب فى صورة قضايا موجزة

لكل أمة خواص نفسية ثابتة ثبات خواصها الجسمية تقريباً . والنوع النفسى كالنوع الجسمى أى المادى لا يتغير إلا على طول السنين ومر الاجيال

يوجد بجانب الخواص النفسية الثابتة الوراثية التى يتكون منها المزاج العقلى لكل أمة خواص ثانوية تنشأ من تغيرات البيئة وتتجدد على الدوام فيخيل لذلك أن الامة فى تحول مستمر كبير

المزاج العقلى لكل أمة هو خلاصة أفرادها الاحياء وأسلافهم الذين كونوها فالشأن الاول فى حياة الامم للاموات لا للاحياء لانهم هم الذين خلقوا شعورها الادبى وهيأوا الاسباب البعيدة فى سيرها

تمتاز الامم بعضها عن بعض بفروق كما امتازت بفروق نوعية والاولى ملازمة للثانية والفرق ضعيف بين أفراد المثال الوسط فى أمة ومثلهم فى أمة أخرى وعظيم جداً بين أفراد الطبقات الراقية ومن هذه المقارنة يتبين أن الفارق بين الامم الراقية وبين الامم المنحطة هو فى احتواء الاولى عدداً غير قليل من ذوى العقول الكبيرة وفى أن ذلك غير موجود فى الثانية

يتساوى أفراد الامة المنحطة فيما بينهم مساواة واضحة وكلما ارتقت الامة وجدت الفروق بينهم فأثر الحضارة الذى لا بد منه هو ايجاد الفروق بين الامم وبين الافراد وعليه فهى سائرة نحو التفاوت لا نحو المساواة

حياة الامة ومظاهر حضارتها مرآة روحها تدل على أمر خفى لكنه موجود . فالحوادث الخارجية أثر ظاهر لنسيج خفى هو الفعال

ليس الشأن الاول فى حياة الأمم للاتفاق ولا للاحوال الخارجية ولا للنظامات السياسية على الاخص بل لخلق كل أمة

لما كانت عناصر مدنية كل أمة هى الدلالة الخارجية على مزاجها العقلى أعنى ممثلة حال تلك الأمة من حيث الكيفية الخاصة بها فى شعورها بالمحسوسات وتصورها إياها فمن المتعذر نقل تلك العناصر الى أمة أخرى من دون تغيير فيها وانما الذى يمكن نقله هى الصور الظاهرة السطحية التى لا قيمة لها

اختلاف المزاج العقلي بحسب الأمم يجعل كل واحدة تتصور الوجود بصورة خاصة فهي اذن تختلف في الحس والعقل والعمل ويقوم النزاع بينها على جميع المسائل متى احتكت بعضها . وهذا التنازع هو سبب جميع الحروب المدونة في التاريخ حروب الفتح والحروب الدينية وحروب العائلات المالكة كلها في الحقيقة حروب حسية

لا يتكون من مجموع أفراد مختلفي الأصل شعب مستقل ، أعني أنهم لا يكون لهم روح يشتركون فيها كلهم الا اذا كثر تبادل النسل بينهم مدة طويلة واتحدت معيشتهم في بيئات متحدة. وصارت مشاعرهم واحدة ومنافعهم مشتركة ومعتقداتهم عامة

لا يكاد يوجد في الأمم المتحضرة شعوب أصلية بل ليس هناك الا شعوب صناعية تكونت من أحوال تاريخية

لا يؤثر تغيير البيئة تأثيراً شديداً الا في الشعوب الجديدة أعني التي تكونت من أخلاط شعبية تفككت أخلاقها الموروثة بكثرة التناسل فلا يغلب الوراثة الا الوراثة واذا لم يكن للتناسل من القوة ما يكفي لزعزعة الأخلاق وتشتيتها كان تأثير تغيير البيئة قاصراً على التخريب وقد يموت الشعب القديم ولا يقبل التغيير الذي تقتضيه ضرورة انطباعه على بيئة جديدة

تبلغ الأمة ذروة مجدها متى تم لها روح قوي عام وتسقط متى تحلل هذا الروح وأهم العوامل في هذا التحليل دخول عنصر أجنبي في الأمة

تتأثر الانواع النفسية كالأنواع المادية بالزمان كلاهما يهرم ويموت. وتحتاج كلها فى تكوينها الى زمن طويل وقد تزول فى وقت قصير. إذ يكفى أن تضطرب وظائف أعضائها ليحدث فيها تطور نحو السقوط وقد تكون نتيجته الدمار العاجل فالامم تقطع قروناً طوالا قبل أن ينشأ لها مزاج عقلى خاص وقد تفقده فى برهة يسيرة فالشقة الى تسيرفيها الى الحضارة بعيدة ومنحدر السقوط قصير غالباً

المبادىء من أهم عوامل الحضارة بعد الخلق ولكنها لا تؤثر الا بعد أن تتطور على مهل حتى تصير شعوراً وتصبح جزءاً من الخلق نفسه وتخرج بذلك من دائرة البحث والنظر ولا تزول المبادىء الا بعد مرور دهر طويل وكل حضارة ترجع الى بعض مبادىء أساسية مسلم بها من الكافة

أهم المبادىء المؤثرة فى الحضارة المبادىء الدينية واختلاف الاديان هو السبب البعيد فى أعظم حوادث التاريخ فتاريخ الانسانية مقترن على الدوام بتاريخ آلهتها وهؤلاء أبناء خيالنا ولهم مع ذلك سلطان كبير حتى أن تغير أسمائهم كاف وحده فى قلب نظام العالم بأسره وظهور آلهة جديدة كان على الدوام طليعة لحضارة مقبلة واختفاؤهم كان الدوام نذيراً بزوال حضارة مدبرة

تم

فهرست

مقدمه المؤلف

الباب الاول

طباع الشعوب النفسية

الباب الثانى

ظهور أخلاق الامم فى عناصر مدنيتها

الباب الثالث

تاريخ الامم باعتباره مشتقاً من أخلاقها

الباب الرابع

كيف تتحور الصفات النفسية للأمم

الباب الخامس

تحلل الخلق وسقوط الأمم